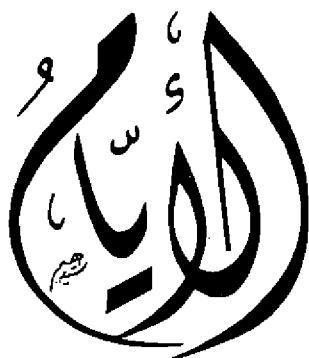


طه حسين



٣

الطبعة العاشرة



دارالمعارف

الفصل الأول

على باب الأزهر

كان صاحبنا الفتى قد أنفق أربعة أعوام في الأزهر . وكان يعدّها أربعين عاماً . لأنها قد طالت عليه من جميع أقطاره . كأنها الليل المظلم ، قد تراكمت فيه السحب القاتمة الثقال ، فلم تدعْ للنور إليه منفذاً . ولم يكن الفتى يضيق بالفقر . ولا بقصر يده عما كان يريد ، فقد كان ذلك شيئاً مألوفاً بالقياس إلى طلاب العلم في الأزهر الشريف .

وكان الفتى يرى من حوله عشرات ومئات يشقّون كما يشقى . ويلقّون . مثل ما يلقي ، وتقصر أيديهم عن أقصر ما كانوا يحبّون ، قد اطمأنوا إلى ذلك . وألغته نفوسهم ، واستيقنوا أن الثراء والسعة وخفض العيش أشياء تعوق عن طلب العلم . وأن الفقر شرط للجدّ والكد والاجتهاد والتحصيل ، وأن غنى القلوب والنفوس بالعلم خبير وأجدى من امتلاء الجيوب والأيدى بالمال .

وإنما كان يضيق أشدّ الضيق بهذا السأم الذي ملأ عليه حياته كلها ، وأخذ عليه نفسه من جميع جوانبها .

حياة مطرودة متشابهة لا يجد فيها جديدًا منذ يبدأ العام الدراسي إلى أن ينقضى : درس التوحيد بعد أن تُصَلَّى الفجر . ودرس الفقه بعد أن تشرق الشمس ، ودرس في النحو بعد أن يرتفع الصّبح ، وبعد أن يصيب الفتى شيئاً من طعام غليظ ، ودرس في النحو أيضاً بعد أن تُصَلَّى الظهر ، ثم فراغ فراغ كثيف بعد ذلك يصيب

فيه الفتى شيئاً من طعام غليظ مرة أخرى . حتى إذا صُلِّيت المغرب راح إلى درس المنطق يسمعه من هذا الشيخ أو ذاك . وهو في كل هذه الدروس يسمع كلاماً معاداً وأحاديث لا تَمَسُّ قلبه ولا ذوقه ، ولا تغذو عقله . ولا تضيف إلى علمه علماً جديداً . فقد تربّت في نفسه تلك الملكة كما كان الأزهريون يقولون ، وأصبح قادراً على أن يفهم ما يكرّره الشيوخ من غير طائل .

وكان الفتى يفكر في أن أمامه ثمانية أعوام أخرى ، سيعدها ثمانين عاماً ، كما عدّ الأعوام الأربعة التي سبقتها . وفي أن عليه أن يختلف إلى هذه الدروس كما تعود أن يفعل ، وأن يعيد ويبدئ في هذا الكلام ، الذي لا يُسيغه ولا يجد فيه غناء . وفي أثناء هذا كله ذُكر اسم الجامعة ، فوقع من نفسه أول الأمر موقع الغربة الغريبة ، لأنه لم يسمع هذه الكلمة من قبل ، ولم يعرف إلا الجامع الذي كان يتفق فيه بياض النهار وظطراً من سواد الليل . فما عسى أن تكون الجامعة ، وما عسى أن يكون الفرق بينها وبين جامعه ذاك أو جوامعه تلك الكثيرة التي كان يختلف فيها إلى شيوخه . فما أكثر ما كان بعض الشيوخ يتأوّن بدروسهم وطلابهم عن الأزهر ، ويؤثرون أنفسهم بمسجد من هذه المساجد الكثيرة في الحي ! وكان تنقل الفتى بين هذه المساجد يرقّه عنه بعض الترفيه .

على أنه لم يلبث أن فهم كلمة الجامعة هذه فهماً مقارباً ، وعرف أنها مدرسة لا كالمدارس ، وأحسّ أن مزيّتها الكبرى عنده أن الدروس التي ستلقى فيها لن تشبه دروس الأزهر من قريب أو بعيد ، وأن الطلاب الذين سيختلفون إليها لن يكونوا من المعمّنين وحدهم ، بل سيكون فيهم المطربشون ، وعسى أن يكونوا أكثر عدداً من أصحاب العمائم ، لأن هؤلاء لن يعدلوا بعلمهم الأزهرى علماً آخر ، ولن يشغلوا أنفسهم بهذه القشورات التي يضيع فيها أبناء المدارس - كما كانوا يسمونهم في تلك الأيام - أوقاتهم .



وكان نبأ الجامعة هذا إيذاناً للفتى بأن غمته تلك توشك أن تُكسَف ، وبأن غمته تلك توشك أن تنجلي . فقد يُتاح له أن يسمع غير ما تعود أن يبدى فيه ويعيد من علمه ذاك الممل . وقد أقام الفتى مع ذلك على شكٍّ ممضٍ يؤذى نفسه أشد الإيذاء ، ولا يستطيع أن يصرح به لأحد من أصدقائه أو ذوى خاصته .

أتقبله هذه الجامعة بين طلابها حين يتم إنشاؤها أم تردّه إلى الأزهر رداً غير جميل لأنه مكفوف ، وليس غير الأزهر سيلاً إلى العلم للمكفوفين ؟ كان هذا الشك المؤلُم يورق ليله ويقصّ مضجعه ، ولم يكن ينجى به إلا نفسه . كان يستحي أن يتحدث عن آفته تلك إلى الناس ، وكان يؤذيه أشد الإيذاء أن يتحدث الناس عنها إليه ، وما أكثر ما كانوا يفعلون !

عاش إذن بين خوفٍ ملحٍّ ورجاء ضئيل يعتاده بين حينٍ وحين ، فيشيع لنفسه شيئاً من راحة وروح . حتى إذا أنشئت الجامعة وعلم الفتى علمها ذهب عنه الخوف ، وملاً الأمل نفسه رصاً وبهجة وسروراً . واختلف إلى دروسه في الأزهر ذات يوم فلم يسمع من شيوخه شيئاً ، ولم يفهم عنهم شيئاً . كان في شغل عنهم وعن دروسهم بما سيكون حين يقبل المساء . ولأول مرة سمع درس الأدب في الضحى فكان حاضراً كالغائب ، ويقظاً كالنائم ، ولم ينتظر أن تُصلّى العصر ، وإنما سعى إلى الجامعة في أعقاب درس البلاغة مع زميله ، فأدّى كلّ منهم ذلك الجنيه الذى لم يكن بدّ من أدائه ليؤذن له بالاستماع إلى الدروس . وكان غريباً عند هؤلاء الفتيّة أن يشتروا العلم بالمال وإن كان قليلاً . فهم لم يتعودوا ذلك ولم يألفوه ، وإنما تعودوا أن يرزقوا أرغفة في كلّ يوم ليطلبوا العلم في الأزهر ، وقد وجدوا بعض ما يقم الأود . وكان أداء ذلك الجنيه عليهم عسيراً ، ولكنهم أحبوا دروس الجامعة بمقدار ما وجدوا من العسر في أداء ثمنها .

واستمع الفتى لأول درس من دروس الجامعة في الحضارة الإسلامية . فراحه

أول ما راعه شيء لم يكن له بمثله عهد في الأزهر ؛ فهذا أحمد زكى بك يبدأ الدرس بهذه الكلمات التي لم يسمعها الفتى من قبل : « أيها السادة : أحْيِكم بتحية الإسلام ، فأقول السلام عليكم ورحمة الله » .

وإنما كان الفتى يسمع في الأزهر كلاماً آخر لا يتجه به الشيوخ إلى الطلاب ، وإنما يتجهون به إلى الله عز وجل فيحمدونه ويشنون عليه ، ولا يجيئ فيه الشيوخ طلابهم ، وإنما يصلون فيه على النبي وعلى آله وأصحابه أجمعين !

ثم راع الفتى بعد ذلك أن الأستاذ لم يقل في أول درسه : « قال المؤلف رحمه الله » وإنما استأنف الدرس يتكلم من عند نفسه ولا يقرأ في كتاب . . . وكان كلامه واضحاً لا يحتاج إلى تفسير ، وكان سَوِيّاً مستقيماً لا قفلة فيه ولا اعتراض عليه . وكان غريباً كلَّ الغرابة ، جديداً كلَّ الجدة ، ملَك على الفتى عقله كله وقلبه كله ، فشغل عن صاحبيه ، وشغل عمن كان حوله من الطلاب ، وما كان أكثرهم ! حتى إذا أوشك الدرس أن ينقضى ، أعلن الأستاذ أنه سيعيد هذا الدرس بعد دقائق ليتاح للطلاب الكثيرين الذين لم يَتَّح لهم دخول الغرفة أن يسمعوه . وانصرف الفوج الأول من الطلاب ، ولكن صاحبنا لم يَرَمْ ، وإنما أقام في مكانه حتى سمع الدرس مرة أخرى .

لم يَمِ الفتى من ليلته تلك ، وسمع المؤذن يدعو إلى صلاة الفجر فلم ينهض من فراشه ، وإنما تناقل وتناقل ، ولم يخرج من غرفته إلا حين ارتفع الضحى . ولولا درس الأدب في الرواق العباسي لظلَّ في غرفته حتى يقبل المساء .

وقد سمع الفتى درس الأدب غير حتى به أول الأمر ، ولكن الشيخ سألَه عن شيء فلجلج الفتى وسخر منه الشيخ ، وسألَه عن هذين المقطعين اللذين رُكِّبَا في رأسه ماذا يصنع بهما ، يريد بالمقطعين أذنيه . ومنذ ذلك الوقت أقبل الفتى على درس الأدب هذا كما كان يقبل عليه من قبل ، فلم يضع مما قال الشيخ حرفاً .

وسمع بعد ذلك درس النحو فلم يمنح الأستاذ إلا أحد مقطفيه هذين ، ولعله لم يمنحه مقطفه كله . . إنما كان يعيش لساعة المساء ، ويتعجل ذلك الدرس الذى سيسمعه من أحمد زكى بك عن الحضارة المصرية القديمة . وقد سمعه فلم تسعه الأرض على رُحْبها ، سمع أشياء لم تكن تخطر له على بال ، ولم يكن يتصور أنها قد كانت ، أو أن الناس يمكن أن يتحدثوا بمثلها .

وكان تحرّقه إلى درس اليوم الثالث أشدّ وأقوى من تحرّقه إلى الدرسين اللذين سبقاه ، فسيكون الأستاذ إيطالياً ، سيتحدث باللغة العربية . إيطالياً يتحدث إلى المصريين فى العلم بلغتهم العربية ، وفى شىء لم يسمع الفتى وأتراه الأزهريون به قبل يومهم ذاك ، ولم يفهمه الفتى وأتراه حين سمعوه ، أنكرته آذانهم ، وأنكرته نفوسهم وأذواقهم أيضاً . وكان اسم هذا الشىء الغريب : « أدبيات الجغرافيا والتاريخ » .

ما كلمة الأدبيات هذه ؟ وكيف تكون فى الجغرافيا والتاريخ ؟ وقد أقبل الفتيّة على الدرس فلم يفهموا شيئاً ، لأنهم لم يسمعوا شيئاً .

كان الأستاذ أغناالسيو جويدي شيخاً كبيراً نحيف الصوت ضئله جداً لا يبلغ عنه أقرب الطلاب إليه مجلساً ، وكان الطلاب كثيرين ، وكانت ضالة الصوت تغريم بالضجيج ، فضاع الدرس الأول فى غير طائل بعد أن تعب الأستاذ فى إلقائه ، وتعب الطلاب فى محاولة الاستماع له . واضطرت الجامعة إلى أن تتحارمن الطلاب أرفعهم صوتاً وأفصحهم نطقاً ليبلغ عن الأستاذ كما يبلغ أحد المصلين عن الإمام حين تقام الصلاة .

ولم ينفق الفتى ثلاثة أيام منذ افتتاح الجامعة حتى تغيّرت حياته تغيّراً فجائياً كاملاً .

الفصل الثاني

كيف سقطت في امتحان العالمية !

لم يكد صاحبنا يتصل بالجامعة حتى رثت الأسباب بينه وبين الأزهر ، فأصبح لا يمنحه من الوقت إلا أقصره ، ولا يعطيه من الجهد إلا أبسره . ولم تكن الجامعة وحدها هي التي صرفته عن الأزهر ، وإنما صرفه عنه قبل ذلك زهده فيه ، وضيقه به ، ومثله من أحاديثه المعتادة . وقد انصرف صاحبا عن الأزهر أيضاً : ذهب أحدهما إلى كلية الفرير يعلم فيها اللغة العربية ، وذهب الآخر إلى المطبعة الأميرية يصحح فيها ما كانت تطبع من الكتب ، فلم يبق لصاحبنا في الأزهر أرب ، وقد ضاق حتى بأحب ما كان في الأزهر إلى نفسه ، وهو المدرس الشيخ سيد المرصفي . فأعرض عنه كل الإعراض ، لا زهداً فيه ، ولا نفوراً منه ، ولكن سخطاً على الشيخ رحمه الله ، لأنه أذعن لشيخ الأزهر وأسرف في الإذعان ، وأعرض عن معاينة تلاميذه ، وتوهم أن الجواسيس قد أرصدت له ، وبُثت عليه ، فتحفظ في كل ما كان يقول ، وكره أن يسمع من تلاميذه بعض ما كانوا يأخذون فيه إذا جلسوا إليه من عبث الشيوخ وخوض في حديثهم ! ! وقال للفتى ذات يوم حين أخذ في بعض ذلك : « لا ، لا ، لا . دعنا نأكل العيش . . ! » ، فتركه الفتى يأكل العيش ... وأصبح لا يلقاه إلا يوم الجمعة يسعى إليه في بيته ، فينق مع الساعات حلوة حرة ، يقول فيها ما يشاء ، ويسمع ما يشاء الشيخ أن يقول ، وما أكثر ما كان الشيخ يقول !

ومنذ ذلك الوقت أيضاً سلك الفتى في حياته طريقاً لم يكن يُقدَّر أن سيتاح له سلوكها ، فاتصل بالجريدة ومديرها الأستاذ لطفى السيد ، وقويت الصلة بينهما حتى كان يلقيه مرات في كل أسبوع ، وكان يلقي عنده من شيوخ المطرشين وشبابهم قوماً كثيرين ، وكانت أحاديث الأستاذ وزائريه تفتح للفتى أبواباً من العلم والمعرفة لم تكن تخطر له ببال من قبل ، ولم يكن يقدر وجودها فضلاً عن اتصاله بها من قريب أو بعيد .

واتصل الفتى كذلك بالشيخ عبد العزيز جاویش - رحمه الله - فأكثر الاختلاف إليه والاستماع له . وما هي إلا أن أخذ يجرب نفسه في الكتابة ، كما جرب نفسه في الشعرين يدي أستاذه المرصني . ولم يكد الفتى يأخذ في الكتابة حتى عُرف بطول اللسان والإقدام على ألوان من النقد ، قلما كان الشباب يقدمون عليها في تلك الأيام . ولكنه كان نقداً محافظاً غالباً في المحافظة ، إلا أن يعرض لشئون الأهر ، فهناك كان يخرج حتى عن طور الاعتدال ، ويغلو في العبث بالشيوخ ، ويجد التشجيع كل التشجيع على ذلك من الشيخ عبد العزيز جاویش ، وربما وجد منه إغراء بذلك وحثاً عليه . وكان صاحبنا موزعاً بين مذهبين من مذاهب الكتابة في ذلك الوقت . أحدهما مذهب الاعتدال والقصد ، ذلك الذي كان الأستاذ لطفى السيد يدعوه إليه ويزينه في قلبه . والآخر مذهب الغلو والإسراف ، ذلك الذي كان الشيخ عبد العزيز جاویش يغريه به ويحرّضه عليه تحريضاً . وكان الفتى يستجيب للمذهبين جميعاً . فإذا اقتصد في النقد نشر في الجريدة ، وإذا غلا نشر في صحف الحزب الوطني .

ولم ينس الفتى قط كلمة كتبها فأورثته ألماً لاذعاً وحزناً مُعضّياً . واضطرته إلى أن يسعى معتذراً متوسلاً بالصديق إلى من كتبت فيه هذه الكلمة . كان ذلك حين اختصم الناس حول سؤال من أسئلة الامتحان في الشهادة الثانوية في الأدب . فكان

من شارك في هذه الخصومة زميل أزهري من زملائه كان يعلم في كلية القرير وكان هذا الزميل ينتمي إلى أسرة كبيرة وبعد انتهاء إليها من مفارجه ، ولكنه لم يكن من هذه الأسرة إلا لأن أباه كان من عتقائها . فلما ردّ صاحبنا عليه نسبة إلى الأسرة وبين طبيعة انتسابه إليها لم يرد إيداء زميله ، وإنما أعجبه هذا التعريض فاستجاب له ، ولم يراجع نفسه فيه إلا حين قرأه مطبوعاً في الصحيفة . ولامه فيه صاحبه . هنالك أسقط في يده ولم يرض زميله إلا بعد جهد وعناء ، وقد رضى الزميل وصفه ، ولكن الفتى لم ينس هذا الإثم قط ، وما أكثر ما ازدري نفسه ، وحاول أن يأخذها بالآ تضع كلمة في مقال حتى تفكر وتقدر وتجنب الإيذاء ما وجدت إلى ذلك سبيلاً ! ولم يكن هذا الندم كل ما جرّ عليه طول اللسان من ألم ، فما أكثر ما كان يكلفُ بالنقد فيمضي فيه مؤمناً به حريصاً عليه لا يحسب لعواقبه حساباً .

ثم تمضي الأيام في إثر الأيام ، وإذا هو قد نسي ما كتب ، وشغل عنه بأشياء أخرى ، ولكن الناس لم ينسوه وإنما حفظوه له ، وقيدوه عليه ، وأخذوه به حين منحت الفرصة . وطول اللسان هو الذي قطع الصلة قطعاً حاسماً بين صاحبنا وبين الأزهري ، ودفعه دفعاً إلى حياته التي أتاحت له ، وعرضه لسخط أي مسخط ، وحزن أي حزن ، وعناء أي عناء ، والغريب أنه قد تلقى السخط والحزن والعناء باسماً موفور الرضا ، طيب النفس ، فلم تتعلق نفسه قط بالجلوس إلى عمود من أعمدة الأزهري ، ولا باللقاء الدرس في حلقة من حلقاته .

لم يأس إذن على انقطاع الصلة بينه وبين الأزهري ، وإنما ملأ قلبه الحزن والأسى حين عرف مسخط أبيه الشيخ ، وحزن أمه التي كان يختصها بالحب والبر والحنان .

كان ذلك حين أنشأ الشيخ رشيد رضا - رحمه الله - شيئاً سماه مدرسة الدعوة والإرشاد ، وأعلن أن هذه المدرسة ستعِدُّ طلابها من الأزهريين لدعوة غير المسلمين إلى الإسلام ، ولإرشاد المسلمين أنفسهم إلى دينهم الصحيح المبرأ من أوهام القرون

وأباطيلها . وقد ضاق المجتهدون من أبناء الأزهر بهذه المدرسة أشد الضيق ، وسخطوا عليها أعظم السخط . رأوا فيما أحاط بإنشائها من الظروف انحرافاً عن الوفاء للأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده من رجل كان يرى نفسه أقرب تلاميذ الشيخ إليه ، وأخصهم به وأوفاهم له . فقد عطف الخديو على هذه المدرسة وأعانها وأغرى شيوخ الأزهر بتأييدها . ورأى تلاميذ الأستاذ الإمام أن في عطف الخديو على هذه المدرسة وإعانتها لها ما أثار في نفوسهم الرئب فنفروا الناس منها ، وأطلقوا ألسنتهم فيها ، وعابوا على الشيخ رشيد أنه ثاب إلى من أخرج الأستاذ الإمام من الأزهر وعرضه لكثير من الشر والأذى وأغرى به الشيوخ ، حتى أذاعوا عن الشيخ ما أذاعوا من السوء ، ونالوه بما نالوه من المكروه .

وفي ذات يوم أقام الشيخ رشيد وأصحابه حفلاً بهذه المدرسة ، واجتمعوا حول مائدة العشاء في فندق من فنادق القاهرة يقال له فندق « سافوى » . ونشرت بعض الصحف أنباء زعمت فيها أن أكواب الشهبان أديرت حول هذه المائدة . وكان جماعة من شيوخ الأزهر يتقدمهم شيخهم الأكبر قد شهدوا هذا العشاء ، ورأوا ما أدير فيه من الأكواف فلم ينكروا بالعمل ولا بالقول .

هنالك ثارت نائرة المخلصين للأزهر ، فلهجوا بالشيوخ وقالوا فيهم فأكثروا القول . ودافع المدافعون عن الشيوخ بأن زجاجات فُتحت في ذلك العشاء وكان لفتحها فرقة ، ولكنها لم تكن زجاجات الشهبان ، وإنما كانت زجاجات الكازوزة ! ولكن خصوم الشيوخ من أبناء الأزهر لم يقلبوا هذا الدفاع ، ولم يصدقوه ، وإنما مضوا يلهجون ويقولون في الشيوخ فيكثرون القول ، وكان صاحبنا القتي أطولهم لساناً ، وأجراًهم قلماً ، وأجرحهم لفظاً . عاب الشيوخ شعراً ونثراً ، ونشر عبد العزيز جاويز له ذلك في صحيفة « العلم » فرضى المجتهدون وأغرقوا في الرضا ، وسخط المحافظون وأسرفوا في السخط ، وتناقل أولئك وهؤلاء هذه الأبيات الثلاثة من شعر

الفتى الذى لم ينسبه إلى نفسه ، وإنما زعم أنه تلقاه فى البريد :
 رعى الله المشايخَ إذ توافوا إلى سافواى فى يوم الخميس
 وإذ شهدوا كؤوسَ الخمر صِرْفاً تدورُ بها السَّقاءُ على الجُلوسِ
 رئيسَ المسلمين عدداك ذمُّ ألا الله درك من رئيس
 ثم مضت الأيام وتتابع فيها الأحداث ، حتى إذا دار العام رأى الفتى نفسه
 يتهباً للامتحان فى الأزهر لينال درجة العالمية . وقد تلقى الفتى ما كان يسمى حينئذ
 بالتعيين ، وهو الدروس التى يجب أن يعدها ليلقيها أمام لجنة الامتحان ،
 ويشت لمناقشة المتقدمين فيها .

فاستعدَّ الفتى وأحسن الاستعداد ، وحفظ فأحسن الحفظ ، حتى إذا لم يبق بينه
 وبين شهود الامتحان إلا سواد الليل ، أقبل عليه شيخه الموصى - رحمه الله - فأنبأه
 هذا النبأ العجيب الذى لم يحمله إليه فى ضوء النهار ، وإنما حمله إليه فى ظلمة الليل ،
 بعد أن صُلِّتِ العشاء .

قال الشيخ : إذا أصبحت يا بنى فاستقل من الامتحان ولا تحضره من عامك
 هذا ، فإن القوم يأنمرون بك ليسقطوك .
 قال الفتى : وما ذلك ؟ !

قال الشيخ : تعلم أنى عضو فى لجنة الامتحان التى ستحضر أمامها غداً ،
 والتى يرأسها الشيخ دسوقى العربى ، فقد دُعِيَ رئيس اللجنة إلى الشيخ الأكبر وأمر
 بإسقاطك مهما تكن الظروف .

قال الفتى : ولكنى سأحضر أمام لجنة أخرى يرأسها الشيخ عبد الحكيم عطا .
 قال الشيخ : فإن هذه اللجنة لن تجتمع لأن رئيسها أى أن يسمع للشيخ
 الأكبر حين أمره بإسقاطك . فلما ألحَّ الشيخ الأكبر عليه ألحَّ هو فى الإباء ،
 فلما خيَّرَ الشيخ الأكبر بين إسقاطك وبين ألا تجتمع لجنته آثر ألا تجتمع اللجنة ،

وقال إنما هو غداء وثلاثون قرشاً ...

وأي الفتى أن يستقبل على رغم إلحاح الشيخ المرصني عليه في ذلك ، ونام ليله هادئاً موفوراً ، واستقبل صباحه راضياً مسروراً ، وغدا على لجنة الامتحان ، وكانت مجتمعة في مكان في الدراسة لا يعرف الفتى أقائم هو أم درس فيما درس من المنازل والدور .

غدا على لجنة الامتحان فألقى التحية ، وجلس ، وكان أعضاء اللجنة يشربون الشاي .

قال الرئيس للفتى : هل أفطرت ؟

قال الفتى : نعم .

قال الرئيس : فأتمم هذا الكوب الذي شربت نصفه لتحصل لك البركة . وأخذ الفتى من الشيخ كوبه مبتسماً ، وشرب ما فيه متكرهاً . ثم أخذ في الدرس الأول فأنفق فيه ساعتين ونصف ساعة ، ولقى فيه من المناقشة أشدها ، ومن الجدال أعنفه . وفي أثناء ذلك دخل الشيخ الأكبر ، فلم يسلم ، وإنما قال : حرام عليك يا شيخ دسوقي ، حرام عليك ، ارفق به ! ارفق به ! ثم انصرف .. ولم يرفق الشيخ دسوقي بالفتى ، وإنما أضاف شدة إلى شدة ، وعنفاً إلى عنف ، وانقضى الدرس الأول . وقيل للفتى اذهب فاسترح .

وخرج الفتى فإذا كرسى قد وُضع إلى جانب الباب ، وجلس عليه الشيخ الأكبر كأنه ينتظر شيئاً .

ولم يكذب الفتى حتى دعا شيخاً من الشيوخ كان هناك وقال له : خذه يا شيخ إبراهيم فاسقه فنجاناً من القهوة !

وفي انتظار هذا الفرجان أقبل من حمل الحافظة إلى الفتى إيذاناً بأنه قد سقط ، وبأن اللجنة لا تريد أن يتم ما بقي له من الدروس .

الفصل الثالث

أُتْرَاقُ الْمَرْأَةِ ..

وعاش الفتى وصاحبه أعواماً غرباء عن الأزهر قريين منه ، يُلمُّون به بين حين وحين ، إن أُتِيجَ لهم ذلك . فيجلسون في مجلسهم ذاك بين الإدارة والرواق العباسي ، ويتندرون كما أحبوا أن يفعلوا دائماً بالمقبلين على الأزهر والمخرجين منه ، وبالشيوخ والطلاب . وربما قرأ عليهم أحدهم الزيات في هذا الكتاب أو ذاك من كتب الأدب القديمة أو الجديدة . وربما قرأ عليهم هذه الصحيفة أو تلك من صحف المساء ، فأخذوا في حديث السياسة وخطوبها ، أو في ذكر كُتَّاب تلك الأيام وشعرائها ، يُلمُّون بهذا كله ولا يَمَعْنون فيه . فقد كانوا في تلك الساعات لا يكرهون شيئاً كما كانوا يكرهون أخذ الأمور مأخذ الجد .

كانوا يقصدون إلى الأزهر ليلها ويلعبوا ، لا ليعملوا ويجدوا ، فقد استقرَّ في نفوسهم أن للمجد مكاناً غير الأزهر ، هو الجامعة إذا كان المساء ، وهو دار الكتب أثناء النهار . وربما شاقهم طعام الأزهر ، فذهب نالهم الزناتي فاشتري لهم من هذا الطعام ، وأقبلوا عليه كِلَفين به ساخرين منه ، ومن الذين يعيشون عليه ، ومن أنفسهم حين كانوا يعيشون عليه . فقد تغيَّرت أحوالهم شيئاً ؛ عمل أحدهم مدرساً في كلية الفرير ، وعمل الآخر مصحِّحاً في المطبعة الأميرية ، وأصبح لكل منهما مرتب في آخر الشهر يُتِيج له شيئاً من سعة ، وينأى به عن حياة الأزهر تلك القاسية الجافية ، وعن طعام الأزهر ذلك الخشن الغليظ . ولم يكن صاحبنا الفتى معلماً

ولا مصححاً ، ولم يكن له مرتب في آخر الشهر أو أوله . ولكن حياته مع ذلك لانت بعض اللين . فقد ظل الشيخ يرسل إليه وإلى أخيه وابن خالته ما تعود أن يرسل من الزاد والنفقة على اتساع فيهما قليل . وأضيف إلى ذلك ما كان أخو الفتى يأخذه من مدرسة القضاء في كل شهر ، وما كان ابن خالته يأخذه من دارالعلوم في كل شهر أيضاً . وكان كلاهما يصيب غداه في المدرسة التي يختلف إليها ، وكان صاحبنا قد خلى بينه وبين ما يتاح له من طعام أثناء النهار ، ليس لينا ولا رقيقاً ، ولكنه خير من طعام الأزهر على كل حال . وأتيح للفتى أن يصيب من الطعام المطبوخ مرتين في الأسبوع ، فكان طعام الأزهر بالقياس إليه خشناً غليظاً ، وكان ربما استطرفه بين حين وحين .

وقد جعل هؤلاء الفتيّة الثلاثة يحيون حياة الأدباء في تلك الأيام . وكانت حياة الأدباء في تلك الأيام مزاجاً غريباً من متعة تحتل بين حين وحين ، ومن يؤس نفسى يفرضونه على أنفسهم ، وإن لم تفرضه عليهم الحياة . فالأديب عندهم وعند غيرهم في تلك الأيام بائس بطبعه ، طامع بطبعه إلى النعم ، يتخذ البؤس لنفسه عشيراً ، ويجعل النعم لنفسه حليماً ، ويحتل المتعة القصيرة بين حين وحين إن أتيح أن يخرج من حياته المألوفة إلى رياضة في الضواحي ، أو تنزه في الحدائق ، أو جلسة في قهوة من القهوات .

وكانت حياة الأديب فيما وراء ذلك ألواناً من الرضا والسخط تأتيه من قراءاته الكثيرة المختلفة ، قوامها أن يفكر كما كان يفكر القدماء الذين يقرأ آثارهم ويشعر كما يشعرون ، ويسير في الناس كما كانوا يسرون . وقد ألح أولئك الفتيّة في قراءة الشعر الجاهلي والإسلامي والعباسي وحفظه ، كما ألحوا في قراءة أخبار الشعراء والكتّاب وعلماء اللغة . فعاشوا عيشة أولئك الناس في دخائل نفوسهم ، وإن لم يستطيعوا أن يعيشوها في حياتهم الواقعة ، لأن الظروف كانت تحول بينهم وبين ما كانوا

يريدون من ذلك . وهم قرءوا شعر أبي نواس وأصحابه ، وقرءوا شعر الغزلين العذريين ، فاستحبوا من الغزل ما استحَب أولئك الشعراء ، وذهبوا فيه مذاهبهم المختلفة . حافظ منهم من حافظ قآثر شعر العذريين وغزلهم ، وجدّد منهم من جدّد قآثر شعر العباسيين وغزلهم ، وخلقوا لأنفسهم مثلاً للجمال يتغزلون فيها ويُسبِّبون بها ، ولم يكن للمحافظين منهم بدّ من أن يمتنعوا مثلهم العليا اختراعاً . فقد كانت الحياة تحوّل بينهم وبين لقاء الغوايى . ولكن المجدّدين كانوا خيراً منهم حظاً . فلم يكن من الممتنع أن يلقوا في الأزهر أو خارج الأزهر بعض الوجوه الصباح ، وأن يشخفوا لغزلهم موضوعات لا يمتنعها لهم الخيال ، وإنما تعرضها عليهم الحياة .

وكذلك وجد بين هؤلاء الفتيّة من كان يذهب مذهب جميل وكثير ، وكان الحرمان المطلق محتوماً عليه ؛ كما كان منهم من يذهب مذهب أبي نواس وأصحابه . وكان حظّه من الحرمان أقل ، ونصيبه من النعم أكثر . فهو كان يستطيع أن يلقى أصحاب الوجوه الصباح ، وأن يقول لهم ويسمع منهم ، ويسمى بهم ، ويقول فيهم الشعر ، ويذهب في هذا الشعر المذاهب ، وربما ورّطه هيامه وشعره وورّط معه صاحبيه في الشر القليل أو الكثير .

وكان ثالث هؤلاء الفتيّة نوايسى الشعر ونوايسى الهوى ، وما أسرع ما ألف أفراداً من ذوى الوجوه الحسان ، واطمأن إليهم وأكثر من لقائهم ، يسعى إليهم وحده في مجالسهم ، وربما دعا أحدهم إلى مجلسه مع صاحبيه . وصاحباها يضحكان منه ويعبثان به أول الأمر ، ثم يرثيان له ويلحّان عليه بالنصح بعد ذلك ، يؤدون إليه ما يحبون من العبث به والنصح له ، بالحديث مرة وبالشعر مرة أخرى . ولكنه لا يحفل بعشهما ولا بنصحهما ، وإنما يمضى مع هواه لا يَلْوِي على شيء ، حتى أصبح حديث أنترابه ، وحتى أقبل الفتيّة ذات يوم إلى مجلسهم ذاك من الرواق العباسى فوجدوا بعض الزارين على عبيّتهم قد كتب لهم على الجدار الذى كانوا يستندون إليه هذين البيتين اللذين

كتبهما شاعر قديم لأبي عبيدة معمر بن المثنى :

صَلَّى الْإِلَهُ عَلَى لَوْطٍ وَشِيعَتِهِ أَبَا عبيدة قُلْ بِاللّهِ آمِينَ
فَأَنْتَ عِنْدَى بِلَا شَكٍّ بَقِيَّتِهِمُ

ولم يكد صاحباً الفتي يريان هذا الشعر حتى أخذهما ما يشبه الصاعقة .
وضحك صاحبا ، وأغرق في الضحك ، وثاب صاحياه إلى مثل ما كان فيه .
فضحكوا معه وأغرقا في الضحك أيضاً ، ولكن بغضهم لزملائهم من طلاب الأزهر
زاد أضعافاً مضاعفة ، وجعل الفتي التواسي يبحث عن كاتب هذين البيتين بدون
أن يصل من بحثه إلى شيء . ولكنه رجح لغير سبب أن خصمه إنما هو ذلك الطالب
الأسود الذي كان ينافسه في دروس النحو ، والذي كان يبغضه أشد البغض ، فاتخذ
لنفسه عدواً ، وجعل يتعمد إيذائه كلما وجد إلى إيذائه سبيلاً . فكان لا يراه - وما
أكثر ما كان يراه ! - إلا رفع صوته بهذين البيتين اللذين حفظهما فيما زعم عن أبيه :

فِي الْمُنْدِرِ طَيْرٌ نَاطِقٌ سُبْحَانَ مَنْ قَدْ أَهْمَهُ
يَقُولُ فِي تَسْبِيحِهِ ابْنُ الْأُمَةِ مَا الْأُمَةُ

ومنذ ذلك الوقت أسرف ذلك الفتي التواسي على نفسه وعلى صاحبيه وعلى
زملائه من الطلاب . فكان يتتبع سيئاتهم وأغلاطهم ، ويزيد فيها ويضيف إليها ،
ويقول في ذلك الشعر ، حتى أصبح هجاءً ، وكان لا يحتفظ بهجائه لنفسه ولصاحبيه ،
وإنما يجهر به كلما وجد إلى الجهر به سبيلاً . وربما احتال حتى ينشد شعره
ذاك بأرفع صوته ليسمعه من قبل فيهم من الطلاب . ثم عظم في نفسه الوهم واستأثر بها
حب الشر ، فكان كلما رأى أحداً ينظر إليه فيطيل النظر ، أو ينظر إلى بعض أصحابه
أولئك الحسان اتخذ لنفسه عدواً وهجاء . ثم بدا له أن الهجاء وحده لا يُغني عنه
شيئاً ، فعمد إلى شر منه ، وجعل يكتب إلى إدارة الأزهر وإلى الشيخ الأكبر خاصة ،
الرسائل في كل يوم ، يسعى بها عنده في هؤلاء الطلاب الذين اتخذهم لنفسه عدواً .

وضاق الشيخ الأكبر بهذه الرسائل التي جعلت تُصَبُّ عليه في كل يوم كما ينصب المطر من السماء ، وإذا الإدارة تعلق ذات يوم في لوحة الإعلانات تنبيهاً تدعوه فيه الطلاب إلى أن يكفوا عن هذه الخطة التي يُنكرها الخلق ويحرمها الدين ، وهي السعي بالسوء في الشيوخ والطلاب عند المشيخة . وقد قرأ الفتى النواصي هذا التنبيه ذات يوم بين هذه الإعلانات الكثيرة التي كان الطلاب يعلقونها يعلنون فيها أن ناعلم قد ضاعت منهم ، وأن من وجدها فليردّها إلى صاحبها ، وأن من سرقها فهو جدير بأن يغضب الله عليه ويقطعه من هذا المكان .

قرأ الفتى النواصي هذا التنبيه بين تلك الإعلانات ، فامتلاً قلبه غبطةً وابتهاجاً ، وزعم أنه قد فاز فوزاً عظيماً ، لأنه ضايق الشيخ وأحرجه . وألحَّ في كتابة رسائله تلك إمعاناً في مضايقة الشيخ وإحراجة ، ولم يكفَّ عن ذلك إلا حين كفَّ أصحابه عن الإلزام بالأزهر مخافة سوء العاقبة ، واضطرَّ هو إلى أن يهجر الأزهر كما هجره أصحابه .

على أن صاحبنا الفتى لم يلبث أن شغل ، أو كاد يشغل ، عن صاحبيه بياض النهار . فقد كان يخلص لحياته هذه الجديدة التي أخذ يحياها منذ قرأ لنفسه أول مقال نشرته له الصحف . أَرْضاه ذلك عن نفسه وأطمعه في المزيد منه ، فجعل يكتب في الجريدة رغبةً في الكتابة أحياناً ، وتقرباً بها إلى مدير الجريدة أحياناً أخرى . وجعل مدير الجريدة يرضى عن فصوله ، ويُغريه بالكتابة ، ويحثه عليها حثاً ، ويعلمه القصد في اللفظ والأناة في التفكير .

وما هي إلا أن جعل يُقرِّبه إليه ، ويدعوه إلى زيارته حتى أصبح الفتى ملازماً لمكتب المدير ، يَلْمُ به في أكثر أيام الأسبوع حين يرتفع الضحى ، فلا يحجب عنه ، وإنما يلقاه الأستاذ المدير هاشماً له ، مرحباً به ، آخذاً في التحدث إليه والاستماع منه ، فاتحاً له أبواباً من التفكير ، لم تكن تخطر له على بال ، خائضاً معه في حديث الأدب

القديم ، رايوا له من الشعر ما كان يحفظ وما لم يكن قد سمعه من قبل ، حتى استأثر بقلب الفتى وعقله وحتى أصبح للفتى أستاذان يختصهما بحبه وإعجابه ، أحدهما يذكره بأثمة البصرة والكوفة وهو الشيخ سيد المرصني ، والآخر يذكره بفلاسفة اليونان الذين سمع أسماءهم في الأزهر وجعل يدرس أطرافاً من فلسفتهم في الجامعة ، وهو لطفى السيد .

وكان الفتى يختلف مع ذلك إلى الشيخ عبد العزيز جاويز رحمه الله ، فيسمع له صوتاً عذباً وحديثاً ليناً رقيقاً ، ويرى من وراء هذا اللين وتلك العذوبة عنفاً أى عنف إن ذكرت السياسة ، أو ذكر الأزهر وشيوخه ، أو ذكر بعض الكتاب الظاهرين الذين لا يكتبون في صحف الحزب الوطني . وكان يحب العنف إلى الفتى ويرغبه فيه ، ويزين في قلبه الجهر بخصومة الشيوخ والنمى عليهم في غير تحفظ ولا احتياط . فهو كان يرى أنهم آفة هذا الوطن يحولون بينه وبين التقدم بما كانوا يلجئون فيه من المحافظة ويعينون عليه الظالمين بما لأنهم للخديو ، ومصانعتهم للإنجليز .

وكان بغضه لسعد زغلول رحمه الله معروفاً يتحدث به الناس . هجاء بمقالاته المشهورة التي جعل عنوانها : « ظلموك يا سعد » . وهجاء هجاء منكراً في بعض الشعر الذي لم ينشره لأنه كان أعنف من أن ينشر .

وقد أنشدني قصيدة قالها في السجن ، وقد بلغه أن سعداً قد يعود إلى الوزارة أو يصبح رئيساً لمجلس الوزراء ، لم أحفظ منها إلا مطلعها وهو يشيع كما نرى :
إن صَحَّ ما أنهى الرواة لمسمعى فلسوف تصبح تحت حكم الأقرع

وعلى الشيخ عبد العزيز جاويز رحمه الله يقع نصيب غير قليل من ثقل تلك الفصول الطوال السمجة التي كتبها الفتى ، فشغل بها الأدباء والمثقفين حيناً ، ثم لم ينقطع استخذاؤه لها وضيقه بها وخجله منها كلما ذكرت له . وكان موضوعها نقد « نظرات » المنفلوطي رحمه الله . وكان عنوانها : « نظرات في النظرات » .

قرأ الفتي الفصول الأولى من نظرات المنفلوطي راضياً عنها ، معجباً بها ، ثم لم يلبث أن ستمها وانصرف عنها . ولكنه لم يكذبها يراها مجموعة في كتاب حتى ضاق بها أشد الضيق ، وكتب بعبيها وبغض منها . وفرح الشيخ عبد العزيز جاويش بما كتب الفتي أشد الفرح ، واستزاده من الكتابة ، وحرّضه عليها وألح في التحريض ، حتى ألقى في رُوعه ألا يدعَ فصلاً من فصول المنفلوطي إلا اختصه بفصل من النقد . وكان الفتي قديم المذهب في الأدب لا ينظر منه إلا إلى اللفظ ، ولا يحفل من اللفظ إلا بمكانه من معجمات اللغة . فكان عيب المنفلوطي عنده أنه يخطئ في اللغة ويضع الألفاظ في غير مواضعها ويصطنع ألفاظاً لم تثبت في « لسان العرب » ولا في « القاموس المحيط » .

وما أسرع ما انزلق الفتي من هذا النقد السخيف إلى طول اللسان وشيء من الشتم لم تكن بينه وبين النقد صلة . ولم ينسَ الفتي مقالاً دفعه ذات مساء إلى الشيخ عبد العزيز جاويش ، فلم يكذب يقرأ أوله حتى طرب له وأبى إلا أن يقرأه بصوته العذب على من يحضر مجلسه ذاك . وابتهج الفتي حين سمع الشناء ، وأحسن الإعجاب ، واستيقن أنه أصبح كاتباً ممتازاً . ثم لم يذكربعد ذلك أول هذا المقال حتى طأطأ من رأسه ومن نفسه ، وسأل الله أن يتيح له التكفير عن ذنبه ذاك العظيم . وكان أول المقال : « عَمَّ صباحاً أو مساء ، واشرب هواء أو ماء ، واستأجر من تشاء لما تشاء فقد وضع الحق وبرح الخفاء » .

كان بعض تبعه هذا السخف يقع على الشيخ عبد العزيز جاويش ، ولكن للشيخ عبد العزيز جاويش فضلاً على الفتي أي فضل ، فهو الذي ألقى في رُوع الفتي فكرة السفر إلى أوروبا حين قال له ذات يوم : « لا بد من أن نصنع شيئاً لإرسالك إلى فرنسا عامين أو ثلاثة أعوام » . لم يكذب الفتي يسمع هذه الألفاظ حتى استقر في نفسه أن ليس له بدٌّ من عبور البحر على أي نحو من الأنحاء . وقد لاحظ

الفتى فيما بعد أن أحاديثه تلك عن المنفلوطى قد شغلت الناس حتى تحدّث إليه فيها كل من كان يلقاه إلا رجلاً واحداً لم يشر إليها قط على كثرة ما كان يلقى الفتى ، وعلى كثرة ما كان يتحدّث إليه ، وهو مدير الجريدة لطفى السيد .

فهم الفتى ، ولكن متأخراً ، أن لطفى السيد لم يرض قطّ عن هذه الفصول . ولو قد رضى عنها ، وعن بعضها ، لتحديث إليه فيها ، وهو الذى كان كثيراً ما يشجّع الفتى فيتنبأ له مرة بأنه سيكون موضعه من مصر موضع فولتير من فرنسا ، ويقول له مرة أخرى أنت أبو العلاتنا . يعتمد إثبات الألف واللام على رغم الإضافة فى اسم أبى العلاء ، ثم يضحك ويغرق فى الضحك حين يرى تنكّر الفتى للجمع بين الإضافة وأداة التعريف .

أصبح الفتى كاتباً بفضل هذين الرجلين : لطفى السيد وعبد العزيز جاویش ، وأصبح كاتباً لشيء آخر : وهو أنه أثناء الأعوام العشرة الأولى من كتابته فى الصحف لم يكتب إلا حباً للكتابة ورغبة فيها ، لم يكسب بها درهماً ولا مليماً .

الفصل الرابع

عندما نقف القلب لأول مرة !

.. على أن فضل الشيخ عبد العزيز جاويز على الفتى لم يقف عند هذا الحد ، وإنما تجاوزه فأمنن في كجاوزه ، فهو الذى عرّف الفتى إلى جماهير الناس ووقفه بين أيديهم ذات صباح منشداً للشعر ، كما كان يفعل الشعراء المعروفون ، وحافظ منهم خاصة ، في بعض المناسبات العامة .

كان الناس قد ألقوا الاحتفال برأس العام الهجرى كلما انقضى عام هجرى ، وأقبل عام جديد . وكان الشيخ عبد العزيز جاويز يحرص على أن يكون للحزب الوطنى احتفاله بهذا اليوم ، فأقام حفلة ذات عام في مدرسة مصطفى كامل ، واحتشد لهذا الحفل عدد ضخم من الناس شباباً وكهولاً وشيباً ، وكان الفتى قد أنشأ فيما بينه وبين نفسه قصيدة يستقبل بها عيد الهجرة ، وأنشدها أمام الشيخ عبد العزيز جاويز ، فرضى عنها وحثه على أن يقول أمثالها .

فلما كان هذا الحفل شهده الفتى مع الشاهدين ، ولكنه لم يكده يتخذ مكانه بين الناس ، حتى أقبل من أخذ بيده وأجلسه على المنصة . ولم يقدر الفتى في نفسه إلا أن الشيخ عبد العزيز جاويز قد أراد أن يرفق به ويتلطّف له ويقرّبه من مجلسه ، فرضى عن ذلك كل الرضا ، وعده فضلاً من الشيخ عظيماً . وألقيت الخطب وصفّق المصفقون ، ولم يرع الفتى إلا أن سمع اسمه يعلن إلى الناس ، ورأى نفسه يُدعى إلى إنشاد قصيدته العصماء ! فلبث في مكانه جامداً واجماً لا يدرى ماذا يصنع ، ولا

يعرف كيف يقول ، وأقبل من أخذ بيده ، وهمّ الفتى أن يمتنع حياءً وتجبلاً ، ولكن الذى أخذ بيده جذبه جذباً شديداً وجعل الذين من حوله يدفعونه وينهضونه حتى أنهضوه وجروه جراً إلى المائدة . واستقبل الفتى بتصفيق شديد منحه قوة وجراً ، فأنشد قصيدته فى صوت ثابت ممتلئ ، ولكنه لم يكن يستقرّ فى موقفه ، وإنما كان جسمه يرتعد ارتعاداً ، واستقبلت قصيدته أحسن استقبال وأروعه حتى خيل إلى الفتى أنه قد أصبح حافظاً أو قريباً من حافظ .

ثم مرت الأعوام وتبعها الأعوام ، واختلفت على الشيخ وعلى الفتى خطوب أى خطوب ، وتعاقت أحداث فى مصرأى أحداث . وجلس الفتى ذات مساء إلى صديق له كريم ، وقد جاوز الفتى سنّ الشباب والكهولة ، وأخذ فى ذكر الصبا وأيام الطلب . وأنسى الشيخ شبابه وصباه وشغل عن حياته الماضية ، وأعرض عن الشعر كل الإعراض بعد أن استبان له أنه لم يقل الشعر قط ، وإنما قال سخفاً كثيراً .

وإذا الصديق الكريم يذكره بموقفه ذاك فى مدرسة مصطفى كامل وإنشاده قصيدته تلك ، ويذكر له مطلع تلك القصيدة ، فيرى الشيخ لما أضاع من شبابه وما أنفق من جهده فى غير طائل ولا غناء ، ثم لم يقف الشيخ عبد العزيز جاويز بالفتى عند هذا الحدّ ، ولكنه علّمه الكتابة فى المجلات ، فقد أنشأ مجلة « الهداية » ، وطلب إلى الفتى أن يشارك فى تحريرها ، ثم ترك له أو كاد يترك له الإشراف على هذا التحرير ، وكان له الفضل كل الفضل فيما تعلم الفتى من إعداد الصحف وتنسيق ما ينشر فيها من فصول . ولم تخل « الهداية » من جدال عنيف دفع إليه الفتى دفعاً . وكان خصمه الشيخ رشيد رضا ، وقد أسرف الفتى على نفسه وعلى الشيخ رشيد فى ذلك الجدال . وكتب أحاديث استحي منها بعد حين ذكرت له ، ولكن الشيخ عبد العزيز كان عنها راضياً وبها كلفاً . وقد أجاز نشرها وشجّع الفتى على المضى فيها . كان يمقت من الشيخ رشيد مما لأنه للخديو وانحرافه عن طريق الأستاذ



الإمام ، وما دفع إليه من إعجاب بنفسه واغترار بشأن الناس عليه وإعجابهم به .
ثم أضاف الشيخ إلى كل هذا الفضل فضلاً آخر وقع من نفس الفتى موقع الماء
« من ذى الغلّة الصادى » أرضاه عن بعض حاله ، وأكبره في نفسه شيئاً ، وأشعره
بأن قد أتيح له أن يجلس مجلس المعلم ، وأن يكون له تلاميذ كثيرون بعد أن حال
الأزهر بينه وبين ذلك .

فقد أنشأ الشيخ عبد العزيز جاويش مدرسة ثانوية كما أنشأ مصطفى كامل
مدرسة ، وكلف الفتى أن يعلم فيها الأدب على ألا ينتظر على ذلك أجراً . فالمدرسة
عمل وطني لا أجر عليه لمن يشارك فيه ، ولم يكن الشيخ يفيد من هذه المدرسة شيئاً ،
وربما أنفق عليها من رزقه وكلف نفسه في سبيل ذلك شيئاً من الحرمان ، وربما
ألح على بعض الأغنياء وأوساط الناس حتى استكروهم على أن يعينوه على نفقاتها
ببعض المال . وقد أقبل الفتى على تعليمه ذاك فرحاً به مبهجاً له ، يرى فيه شفاء
لغيظه من الأزهر ، ويرى فيه مع ذلك مشاركة في بعض الخير .

ثم لم يلبث هذا كله أن انقطع فجأة ، صرف الشيخ عنه بأحداث السياسة ،
ثم اضطر إلى أن يهاجر من مصر على غير انتظار لهجرته ، ولم يره الفتى منذ ودعهم
ليلة سفره إلا بعد أعوام طوال ، بعد أن عاد عودته تلك ، فقد سافر من مصر
فجأة وعلى غير علم من أهلها ، وعاد إلى مصر فجأة وعلى غير علم من أهلها أيضاً .

وهو على كل حال قد أعان الفتى على الخروج من بيئته تلك المغلقة إلى الحياة
العامة ، وعلى أن يكون له اسم معروف . ومثل ذلك فعل الأستاذ أحمد لطفى السيد ،
فعرّف الفتى إلى كثيرين من الذين كانوا يُلْمُون بمكتبته في الجريدة من الشيوخ والشباب ،
وفى مكتبته اتصل برفاق له أحياء عمل معهم فيما بعد ، ولقى معهم خطوباً أى خطوب .
عرف عنده هيكل ومحمود عزمى والسيد كامل ، وكامل البندارى وأترباً لهم كثيرين ،
وعرف بفضله لونا من المعرفة لم يكن يُقدّر أنه سيتاح له في يوم من الأيام . فقد لقي

عنده ذات يوم تلك الفتاة التي كان الناس يتحدثون عنها فيكثرون الحديث . لا لأنها كانت جميلة فاتنة ، ولا لأنها كانت جذابة خلابة ، ولكن لأنها كانت طامحة مَلِيحَة في الطموح ، ظفرت لأول مرة بالشهادة الثانوية ، وكانت أول فتاة ظفرت بها ، وهي نبوية موسى .

وكان الفتى قد لقي السيدات في بيته تلك الريفية ، ولكنه لم يلقَ منهن القارئة الكاتبة البرزة التي تظهر في مجالس الرجال وتجاوزهم ، فتلجّ في المحاوره وتخاصمهم فتعنف في الخصام ، قبل أن يلقى تلك الفتاة .

واحتفل ذات مساء في حجرة من حجرات الجامعة القديمة بتكريم خليل مطران رحمه الله ، وكان الخديو قد أهدى إليه وساماً ، وكان شقيق الخديو الأمير محمد على رئيساً لهذا الاحتفال . وكان الشعراء سينشدون فيه الشعر ، وكان الخطباء سيلقون فيه الخطب ، فاعتذر الفتى إلى أستاذه في الجامعة من حضور الدرس ، ولم يكن يكره شيئاً كما كان يكره التخلف عن الدروس ، وأثر شهود ذلك الحفل . وفيه سمع كثيراً من الشعر وكثيراً من الخطب ، فلم يحفل بشيء مما سمع ، لم يعجبه شعر حافظ في ذلك المقام ، مع أنه كان كثير الإعجاب بشعر حافظ . ولم تعجبه قصيدة مطران لأنه لم يفهم منها شيئاً ، ولم يذق منها شيئاً ، وربما أحس فيها إسرافاً من الشاعر في التضائل أمام الأمير الذي أهدى إليه ذلك الوسام . فقد شبه نفسه بالنبته الضئيلة . وشبه الأمير بالشمس التي تمنحها الحياة والقوة والنماء . لم يرضَ الفتى عن شيء مما سمع إلا صوتاً واحداً سمعه فاضطرب له اضطراباً شديداً وأرقّ له ليلته تلك . كان الصوت نحيلاً ضئيلاً ، وكان عذبا رائقاً . وكان لا يبلغ السمع حتى ينفذ منه في خفة إلى القلب فيفعل به الأفاعيل . ولم يفهم الفتى من حديث ذلك الصوت العذب شيئاً ، ولم يحاول أن يفهم من حديثه شيئاً . شغله الصوت عما كان يحمل من الحديث . وكان صوت الأنسة مَيّ التي كانت تتحدث إلى جمهور من الناس للمرة الأولى . ولم يستطع الفتى

حين أصبح من ليلته تلك أن يمنع عن السعى إلى مدير الجريدة . وقد جلس إليه فقال له وسمع منه . ثم مازال يدور يحدثه حتى انتهى إلى حفل مطران ، وحتى انتهى من حفل مطران إلى ذكر تلك الفتاة التي تحدثت فيه ، والتي لم يسمع الفتى عنها قبل يومه ذاك . وقد سأله مدير الجريدة عما قالت الفتاة فلم يحسن رداً ، وإنما لجلج في القول . وأثنى الأستاذ على مـي ، وأنبأ الفتى بأنه سيقدمه إليها في يوم قريب . وابتهج الفتى بهذا الوعد وإن لم يعرب عن ابتهاجه ، وظلّ يرقب البرّ به . ولكن الأستاذ نسيه . واستحيا الفتى أن يذكره فحمل نفسه على المكروه ، وما أكثر ما كان يحملها على المكروه ! وأعرض عن ذكر مـي ، واجتنب حديثها إلى الأستاذ . ومضت أيام وأشهر وظفر الفتى من الجامعة بدرجة الدكتوراه ، وأعطى مدير الجريدة رسالته عن أبي العلاء ، فقرأها ورضى عنها ، ولكنه لم يردها إلى الفتى . وإنما قال له إنما سترّد إليك رسالتك بعد أيام . لأن الآنسة مـي قد طلبت أن تقرأها ، وسمع صاحبنا ذكر مـي . فبدا عليه فيما يظهر شيء من وجوم . وكان الأستاذ لاحظ ذلك فذكر وعده القديم وقال للفتى في رفق : ألم أعدك بتقديمك إليها ؟

قال الفتى : أكاد أذكر ذلك .

قال الأستاذ : فالقني مساء الثلاثاء فستزورها معاً .

وفي مساء الثلاثاء رأى الفتى نفسه لأول مرة في حياته في صالون فتاة تستقبل الزائرين من الرجال ، حقيّة بهم . معاتبة لهم في رشاقة أى رشاقة . وفي ظرف أى ظرف . وفي حديث عذب يخلب القلوب ويستأثر بالألباب .

وطال المجلس وكثر الزائرون . ودارت أكواب الشاي والفتى في مكانه لا يكاد يحسّ من ذلك شيئاً ، قد ملك الوهم والوجل عليه أمره كله . فهو لم يشهد مثل هذا المجلس قط ، وليس له عهد بمثل ما يجري في مثل هذه المجالس من المراسم ولا بما يُتبع فيها من التقاليد والعادات . فهو منكّر نفسه ، منكّر من حوله وما حوله .

إلا شخصين اثنين هما الأستاذ لطفي السيد والآتسة مى .

وقد أخذ الزائرون فى الانصراف ، ورغب الفتى فيه ليخلص من حرجه .
وأشفق منه حرصاً على صوت مى وحديثها ، ولم يحاول أن ينصرف . فما كان له أن
يحاول ذلك قبل أن يؤذنه به الأستاذ .

وقد انصرف الزائرون جميعاً وخلا للأستاذ وتلميذه وجه مى ، فخاضت مع
الأستاذ فى بعض الحديث ، وأثنت للفتى على رسالته فى أبى العلاء ، فأغرقت فى
الثناء ، واستحبا الفتى شيئاً ، ولم يحسن أن يشكرها ثناءها . ولكن الأستاذ
يطلب إلى الفتاة أن تقرأ عليه مقالها ذاك . فتتردد الفتاة شيئاً ، ثم تقدم بعد أن تعلن
إلى الفتى أنها تقرأ على الأستاذ هذا المقال لأنه هو الذى يعلمها العربية ويعلمها
الكتابة .

قال الفتى فى صوت مختنق ولفظ مجمجم : كما يعلمنى أنا .

قالت مى : فنحن إذن زميلان .

وقرأت المقال ، وكان عنوانه « وكنت فى ذلك المساء هلالاً » .

وسُحر الفتى ، ورضى الأستاذ ، وانصرفا بعد حين . وفى نفس الفتى من

الصوت ومما قرأ شيئاً كثير !

الفصل الخامس

أستاذي يجرع على الشقاء!

وكانت حياة الجامعة في أول عهد المصريين بها عيداً متصلاً بحيوته إذا أقبل المساء من كل يوم ، حين يزدحمون على غرفات الدرس على اختلاف منازلهم من الفقر والغنى ، وعلى اختلاف حظوظهم من الثقافة ، وعلى اختلاف أزيائهم أيضاً . فكان منهم الغنى المترف والفقير الذى لا يجد ما ينفق ، وكان منهم القاصى والطبيب والطلاب والموظف والمجاور فى الأزهر الشريف .

وكان منهم غير أولئك قوم لم يأخذوا من العلم إلا بأيسر أسبابه ، ولكنهم كانوا يختلفون إلى هذه الدروس والمحاضرات ليراو ويسمعوا ويمتعو أنفسهم أن أتيح لهم المتاع . وقد جعلت غرفات الجامعة تضيق بهؤلاء المختلفين إليها والمزدحمين عليها . وعجز الأساتذة عن أن يسمِعوا هذه الأعداد الضخمة التى كانت تكتظ بها الغرفات . فقرّر بعضهم أن يلقي محاضراته مرتين . ولم ير الطلاب بهذا بأساً . كانوا يستبقون ليسمعوا الأستاذ فى محاضراته الأولى . فن حيل بينه وبين ذلك انتظر المحاضرة الثانية . وكانوا ينتظرون فى أبهاء الجامعة وحديقتها . وكان أهل السعة منهم يذهبون إلى قهوة كوبرى قصر النيل القريبة . فيشربون أو يطعمون ، حتى إذا قرب موعد المحاضرة أسرعوا إليها مشغوفين بها إلى أقصى غايات الشغف . واضطرت الجامعة إلى أن تنظم دخول غرفات الدرس ، فلا تأذن به إلا لمن قدموا بطاقات الانتساب وصدّت بذلك عدداً غير قليل من الذين كانوا يسعون إلى هذه الدروس كما كانوا

يسعون إلى المحاضرات العامة .

وأقبل الفتى ذات مساء بصحبة غلامه الأسود ، فلما بلغ الغرفة أظهر بطاقته ، وقد كان بها ضئيلاً وعليها حريصاً . وقيل له تستطيع أنت أن تدخل ، فأما غلامك هذا فلا حقَّ له في الدخول .

وأظهر الفتى شيئاً من ضيق ، ولكنَّ صاحب الباب لم يحفل بضيقه ولا بإنكاره ، ولا بتوسُّل من كان حوله من الطلاب ، ولا بحاجته إلى أن يصحبه هذا الغلام حتى يجلسه في مكانه ثم يرجع أدراجه فينتظر من وراء الباب حتى ينقضى الدرس .

واضطَرَّ الفتى إلى أن يفرع إلى السكرتير العام أحمد زكى بك شاكياً ، وصحبه بعض الطلاب الساخطين على جهل صاحب الباب وعُنفه وغلظة ذوقه . وأدخل الفتى وأصحابه على السكرتير العام ، وقصّوا عليه قصتهم ، ولكنهم لم يجدوا عنده شيئاً . وإنما قال لهم في هدوء : النظام هو النظام .

وهمَّ بعض الطلاب أن يجادله في ذلك فقال له متجهماً : وماذا نصنع وقد أراد الله لصاحبك ألا يشهد هذه المحاضرات ؟

وانصرف أولئك النَّفَر من الطلاب ساخطين على السكرتير العام سخطاً أشد وأعظم من سخطهم على صاحب الباب . وقالوا للفتى : لا بأس عليك ، منصحيك نحن إلى مجلسك .

وصحبوه إلى مجلسه متلطفين له متحبين إليه ، وردّوه إلى غلامه بعد انقضاء الدرس ، وجعلوا منذ ذلك اليوم لا يروْنَ الفتى مقبلاً حتى يحيطوا به من قريب ، فإذا بلغ باب الغرفة أخذ أحدهم يديه ، وصحبه إلى مجلسه ، ثم رده إلى غلامه بعد ذلك ، ولو أطاق الفتى نفسه في ذلك المساء لانصرف عن الجامعة ولحرم على نفسه الاختلاف إلى دروسها .

ولكن الجامعة كانت أحب إليه وآثر عنده من كبريائه تلك السخيفة .

وهو على ذلك لم ينم ليلته تلك ، وإنما أنفقها مسهداً محزوناً ، يذكر كيف لقيَ مثل هذه القسوة حين أراد أن يتسبب إلى الأزهر في آخر الصبا وأول الشباب ، وحين تقدم لأداء الامتحان في حفظ القرآن . فقال له أحد ممتحنيه : اقرأ يا أعمى سورة الكهف !

وذكر الفتى بعد سنتين قصته هذه في الجامعة ، وقصته تلك في الأزهر ، حين دخل غرفة الدرس لأول مرة في جامعة مونيخ ، فسمع الأستاذ يقول لصاحبه : أياكون زميلك هذا مكفوفاً !

قال الزميل : نعم .

قال الأستاذ : فإني أراه قد دخل الغرفة دون أن يرفع قلنسوته .

وكان الفتى حديث عهد بأوروبا لم يعرف بعد أن الناس يرفعون قلانسهم حين يدخلون مكاناً مسقوفاً ، وأنهم يحضرون الدروس حاسري الرؤوس .

وكذلك قضى على الفتى أن يستقبل طلبه العلم في الأزهر والجامعة المصرية والجامعة الفرنسية بكلمة عن آفته تلك تؤذى نفسه وتفرض عليه ليلة ساهرة . ثم يعرض عنها بعد ذلك ، لأنه لم يكن يرى بداً مما ليس منه بد . وما أكثر ما ذكر بيت أبي العلاء :
وهل يابقُ الإنسانُ من مُلكِ ربه فيخرجَ من أرضٍ له وسماؤ ؟ !

وما أسرع ما كان الفتى ينسى هذه الكلمات المؤذية بعد أن يشتري هذا النسيان بليلة ينفقها مسهداً محزوناً ! ثم يُقبل بعد ذلك على ما لم يكن بدّ من الإقبال عليه من العلم في الأزهر وفي الجامعة المصرية وفي جامعات فرنسا .

كان الفتى يرى حياته في الجامعة عيداً متصلاً ، كما كان يراها غيره من المصريين ، ولكنها كانت بالقياس إليه عيداً تختلف فيه ألوان اللذة والغبطة والرضا والأمل . كانت تخرجه من بيئته تلك الضيقة المقلقة في الأزهر ، وفي حوش عطا أودرب الجامعيز إلى بيئة أخرى واسعة لا حدة لسعتها ، فهي كانت تتيح له أن يملأ

رثته من الهواء الطلق حين يسعى إلى الجامعة وحين يعود منها ، وأن يملأ عقله من العلم الطلق الذى لا يقيد تحرج الأساتذة الأزهريين فيها كانوا يلقون من الدروس ، ولا يفسده الإسراف فى القفلة والجدال حول هذا اللفظ أو ذاك ، وإضاعة الوقت فى الإعراب حين لا يكون بين الدرس وبين الإعراب صلة .

وكانت هذه البيئة تتيح له كذلك علماً يخلق نفسه خلقاً جديداً لا يتصل بالنحو ولا بالفقه ولا بالمنطق ولا بالتوحيد ، وإنما يذهب به مذاهب مختلفة فى الأدب وفى ألوان من التاريخ لم يكن يُقدّر أنه سيعرفها فى يوم من الأيام . ولم ينسَ الفتى يوماً خاصم . فيه ابن خالته الذى كان طالباً فى دار العلوم ولجّ بينهما الخصام . فقال الدرعى للأزهري : ما أنت والعلم ! إنما أنت جاهل لا تعرف إلا النحو والفقه ، لم تسمع قط درساً فى تاريخ الفراعنة ! أسمعت قط اسم رمسيس أو إخناتون ؟ !

وَبُهِتَ الفتى حين سمع هذين الاسمين ، وحين سمع ذكر هذا النوع من التاريخ . واعتقد أن الله قد كتب عليه حياة ضائعة لا غناء فيها . ولكنه يرى نفسه ذات ليلة فى غرفة من غرفات الجامعة يسمع الأستاذ أحمد كمال رحمه الله يتحدث عن الحضارة المصرية القديمة ، ويذكر رمسيس وإخناتون وغيرهما من الفراعنة ، ويحاول أن يشرح للطلاب مذهبه فى الصلة بين اللغة المصرية القديمة وبين اللغات السامية ، ومنها اللغة العربية .

ويستدل على ذلك بألفاظ من اللغة المصرية القديمة يردها إلى العربية مرة وإلى العبرية مرة وإلى السريانية مرة أخرى . والفتى دهش ذاهل حين يسمع كل هذا العلم ، وهو أعظم دهشة وذهولاً حين يلاحظ أنه يفهمه ويسمعه فى غير مشقة ولا جهد .

وهو يعود إلى بيته ذلك المساء وقد ملأه الكبر والغرور ، ولا يكاد يلتق ابن خالته حتى يرفع كفيه ساخراً منه ومن دار علومه تلك التى كان يستعلى بها عليه .

وهو يسأل ابن خالته أنت تعلمون اللغات السامية في دار العلوم ؟ ! فإذا أجابه بأن هذه اللغات لا تدرّس في المدرسة أخذته التّيه . وذكر العبرية والسريانية ثم ذكر الهير وغليفية . وحاول أن يشرح لزميله كيف كان المصريون القدماء يكتبون . وتقلب الآية ويصبح المغلوب غالباً والغالب مغلوباً .

ومضى العام الأول من الحياة الجامعية عيداً كله ، لا يحسن الفتى سأمًا منه أوصيفاً به ، وإنما يحسن الحزن الممض حين تبدو طلائع الصيف .

وينفق الإجازة كلها مفكراً فيها سمع ، ومشوقاً إلى ما سيمسح في العام المقبل . ومتسائلاً عن يتي من الأساتذة الذين عرفهم ومن يُدعى من أساتذة لم يعرفهم . ثم لا يلبث أن تستأثر الجامعة بعقله كله وجهده كله ، وأن تشغله عن كل شيء آخر . فقد أقبل أساتذة جُدّد ملكوا عليه أمره واستأثروا بهواه ، فهذا الأستاذ كارلو نالينو المستشرق الإيطالي يدرّس باللغة العربية تاريخ الأدب والشعر الأُموي . وهذا الأستاذ سنتلانا يدرّس بالعربية أيضاً ، وفي لهجة تونسية عذبة ، تاريخ الفلسفة الإسلامية وتاريخ الترجمة خاصة . وهذا الأستاذ ميلوني يدرّس باللغة العربية كذلك تاريخ الشرق القديم . ويتحدّث إلى الطلاب عن أشياء لم يتحدّث عنها أستاذ قبله في مصر . فهو يفصل تاريخ بابل وآشور ، ويذكر الكتابة المسماة ، ويتحدّث عن قوانين هامورابي ، والفتى يفهم عن هؤلاء الأساتذة كل ما يقولون . لا يجد في فهمه التواء أو عسراً . وهو لا يكره شيئاً كما يكره انتهاء الدروس ، ولا يتشوق إلى شيء كما يتشوق إلى ما سيستقبل منها .

وهذا أستاذ ألماني ، هو الأستاذ ليمان ، قد أقبل يتحدّث إلى الطلاب عن اللغات السامية والمقارنة بينها وبين اللغة العربية ، ثم يأخذ في تعليمهم بعض هذه اللغات . وإذا الفتى يخرج من حياته الأولى خروجاً يوشك أن يكون تاماً لولا أنه يعيش بين زملائه من الأزهريين والدرعيين وطلاب مدرسة القضاء وجه النهار وشطراً من الليل .

ولكن عقله قد نأى عن يشته هذه نأياً تاماً ، واتصل بأساتذته أولئك اتصالاً متيناً . فكلهم قد عرفه ، وكلهم قد أثره بالحب والرفق والعطف . وكلهم قد أداناه من نفسه . ودعاه إلى أن يزوره في فندقه ، وأحب أن يقول له ويسمع منه . ولم ينسَ الفتى موعداً ضربه لأستاذه سبتلانا ذات صباح ، ليحضر معه درساً من دروس الأزهر . وقد أقبل الأستاذ إلى حيث كان ينتظره تلميذه أمام الرواق العباسي . وذهب مع الفتى إلى درس الشيخ الأكبر الشيخ سليم البشري رحمه الله ، وكان يُلقى درسه في التفسير مع الصباح بالرواق العباسي . وجلس الأستاذ والتلميذ بين الطلاب ، وأخذ الشيخ يفسر آية كريمة من سورة الأنعام هي قول الله عز وجل : « وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا إِلَهُمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَفَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ يَجْهَلُونَ » .

وقسّر الشيخ - رحمه الله - فأحسن التفسير ، وخاض في حديث الجبر والاختيار ، وجعل يرّد على الجبريّين ويدفع مقالاتهم ، ويأخذ الفتى في حوار الشيخ على عادة الأزهرين ، فيسمع الشيخ له ويردّ عليه ردّاً لا يقنعه ، ويأبى الفتى إلا اللجاج ، فينهره الشيخ بهذه الكلمات : ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ! الله أكبر على العلم والإيمان . حضرتك مسلم ؟

ويهمّ الفتى أن يجيب ، ولكن الشيخ ينهره في سخرية غاضبة قائلاً : اسكت يا شيخ جاتك الكلاب خيلينا نقرأ .

ثم يمضى في حديثه غير حافل بالفتى ، ولكن الفتى يهمّ أن يتكلم ، وإذا أستاذه الإيطالي يمسّ كفه مسّاً متصلاً ، وهو يقول له هامساً بمر بيته التونسية العذبة : اسكت ، اسكت ، ليضربك !

يميل بالضاد إلى الظاء ، ويرى الفتى نفسه مغرقاً في ضحك خفى لا يدرى أكان مصدره سخرية الشيخ منه أم رفق الأستاذ الإيطالي به وإشفاقه عليه ؟ !

فإذا انتهى الدرس ذهب الفتي بأستاذه الإيطالي إلى إدارة الأزهر ، واستأذن له على الشيخ الأكبر ، فأذن له ، وتلقاه حفيماً به منطلقاً له في الحديث . ثم ينظر إلى الفتي فيسأله في رفق : أأنت الذي كان يجادل في الدرس ؟

قال الفتي : نعم .

قال الشيخ متضحكاً : ما شاء الله ! ما شاء الله ! فتع الله عليك وأشفاك بتلاميذك كما يشق بك أساتذتك ! !

الفصل السادس

أُسَاتِزِي..

ولم تكن حياة الجامعة عيداً متصلاً رائع الإمتاع لمكان الأساتذة الأجانب فيها فحسب ، بل كان فيها أساتذة مصريون يضيفون إلى روعتها روعة وإلى إشراقها إشراقاً . ولم ينسَ الفتي طائفة من هؤلاء الأساتذة كان لهم في حياته أبعد الأثر وأعمقه ، لأنهم جددوا علمه بالحياة وشعوره بها وفهمه لقديمها وجديدها معاً ، وغيروا نظره إلى مستقبل أيامه ، وأتاحوا لشخصيته المصرية العربية أن تقوى وتثبت أمام هذا العلم الكثير الذي كان يأتي به المستشرقون ، وكان جديراً بأن يحول هذا الفتي تحويلًا خطيراً يفتنه في العلم الأوربي إفتاءً ، ولكن أساتذته المصريين هؤلاء أتاحوا له أن يأوي إلى ركن شديد من الثقافة الشرقية الخالصة ، وأتاحوا لمزاجه أن يأتلف اثتلاًفاً معتدلاً من علم الشرق والغرب جميعاً . وكان الأساتذة المصريون يختلفون فيما بينهم اختلافًا شديداً ، كان منهم المطربشون والمعممون والذين سبقت العمامة إلى رؤوسهم ثم انحسرت عنها وجاء مكانها الطربوش .

وكان منهم الصارم الحازم الذي لم يكن ثغره يعرف الابتسام إلا قليلاً ، والمزاح الباسم الذي لم يكن وجهه يعرف العبوس إلا نادراً . وكان منهم ذوالعلم العميق العريض الذي يبهو ويسحر ويذكر القلوب والعقول ، وذو العلم الضحل والثقافة الرقيقة الذي يخلب باللفظ ثم لا يكون وراء لفظه الخلاب شيء ذوبال .

وكان منهم من يخلب بلفظه العذب ودعابته الساحرة وعلمه الغزير . كان

منهم إسماعيل رأفت ، رحمه الله ، ذلك الذى لم يكن يعرف من طلابه إلا أنهم يحملون رؤوساً يجب أن يصبَّ العلم فيها صباً . فكان يقبل عليهم عابساً وينصرف عنهم عابساً . لا يلقى إلى أحدهم كلمة . وإنما يأخذ مجلسه ويسط أوراقه ويأخذ فى القراءة حتى تنتهى ساعة الدرس لا يقطعها إلا حين يفسر ما قد يحتاج إلى التفسير ، وحين يلقى على الطلاب هذا السؤال الذى تعود أن يلقيه فى دار العلوم - وقد كان أستاذاً فيها : فاهمين يا مشايخ ؟

وقد سمع الفتى منه وصف إفريقيا على اختلاف أقطارها وعلى اختلاف ما يكون لهذا الوصف من صور يتصل بعضها بطبيعة الإقليم ، ويتصل بعضها الآخر بالسياسة والاقتصاد ونظم الحياة الاجتماعية وأجناس السكان .

وقد سمع الفتى فيما بعد دروساً مختلفة فى الجغرافيا من أساتذة ممتازين فى جامعات فرنسا ، فلم يحسّ لأحدهم فضلاً على أستاذه ذلك المصرى العظيم .

وكان من هؤلاء الأساتذة حنفى ناصف ، رحمه الله . وكان ابتساماً كله وفكاهة كله وتواضعاً كله ، على غزارة فى العلم ، وأصالة فى الفقه بما كان يدرس من الأدب العربى القديم . وكان الطلاب يكلفون به أشدَّ الكلف ، ويطمعون فيه أعظم الطمع ، وكان بعضهم ربما انصرف عن دروسه ليجلس إليه فى قهوة كوبرى قصر النيل التى كان يجلس فيها ساعة قبل الدرس من يوم الخميس من كل أسبوع .

وكان الطلاب يأتون عليه أن يحتم دروسه فى آخر العام دون أن يزيدهم على المقرَّر درسين أو دروساً . وكان الفتى لسانهم حين كانوا يرغبون إليه فى ذلك . وكان الفتى يطلب إليه المزيد من الدرس نثراً حيناً وشعراً حيناً مستعظفاً مرة ومنذراً مرة أخرى . وكان - رحمه الله - قد شرح كتاب « الكافى فى العروض » حين كان طالباً فى الأزهر . وكان ينجل من هذا الشرح وبكره أشد الكره أن ينسب إليه .

فكان الفتى يقسم له في آخر العام لئن لم يضيف إلى المقرر دروساً لينسب إليه شرح الكافي في مقال ينشره في الجريدة . وكان - رحمه الله - يستجيب فيضيف درسين ، وربما أضاف أربعة دروس .

وكان أروع صورة عرفها الفتى لتواضع الأستاذ ، أنه لم يتكلف قطّ ذلك الوقار المصنوع الذى يتكلفه بعض الأساتذة حين يرقون إلى مجلسهم في غرفة الدرس ، وإنما كان يخلط نفسه بطلابه كأنه واحد منهم لولا أنه كان يكبر أكثرهم سناً - فقد كان بين طلابه من تقدمت به السن كثيراً .

وقرأ الفتى ذات يوم في الجريدة حديثاً لأحد القراء يطرح فيه موضوعاً لمسابقة شعرية ، ويجعل لهذه المسابقة جائزة هي كتاب « الأمل » لأبي عليّ القالى ، ويحكم بين المستبقيين الأستاذ حنفى ناصف وتلميذه ذاك الفتى . وأنكر صاحبنا أن يقرن إلى أستاذه ، وأحس شيئاً من غرور . ولكن يجلس ذات مساء في بيته بدرب الجمامير مع جماعة من رفاقه يأخذون بعض ما كانوا يخوضون فيه من حديث ، وإنهم لى ذلك وقد تقدّم بهم الليل وإذا الباب يطرق عليهم . فإذا أدخل الطارئ ، وجّم الفتى ودهش الرفاق . فلم يكن الطارق إلا الأستاذ حنفى بك ناصف ، قد جمع شعر المستبقيين في الجريدة ، وسعى به إلى تلميذه في بيته ذاك في الطبقة السادسة من تلك الدار التي كان يسكنها ، وقال له في رفق عذب : أبيت لأخلو إليك ساعة نفرغ فيها من قضية هؤلاء المستبقيين .

وكان من بين الأساتذة المصريين الشيخ محمد الخضرى ، رحمه الله . كان يدرس التاريخ الإسلامى ، وقد سحر الفتى بعلوية صوته وحسن إلقائه وصفاء لهجته ، وأحب دروسه في السيرة وفي تاريخ الخلفاء الراشدين وفتوحهم وفي تاريخ الفتن ودولة بنى أمية والصدر الأول من دولة العباسيين . وكان يظن أن ليس فوق علم الأستاذ علم ، ولكنه لم يكذب بسمع دروس التاريخ في أوروبا حتى عرف أن الأستاذ

رحمه الله كان ينقل دروسه نقلاً من كتب القدماء في غير نقد ولا تعمق وفي أيسر ما كان يمكن من فقه التاريخ .

وكان من الأساتذة المصريين أستاذان أحبهما الفتي أشدَّ الحب ، وعبث بهما أشدَّ العبث ، واستغلَّ سذاجتهما ووداعتهما أشنع الاستغلال . كان أحدهما الشيخ محمد المهدي ، رحمه الله ، أقبل يدرس الأدب العربي بعد حقني ناصف ، فكان الفرق بين الأستاذين خطيراً بعيد المدى . كان أحدهما عميق العلم ، وكان الآخر أبعد ما يكون عن العمق . كان أحدهما سَمَحاً لا يتكلف ولا يتصنع ، وكان الآخر متكلفاً متفصحاً لا يتكلم إلا العربية الفصحى مُغْرِباً فيها بملأها فمه وربما أضحك منها طلابه ، وكان يقدم السجارة إلى الفتي ، فإذا همَّ الفتي أن يشعلها قال له : « انتظري بني حتى أُلْهَها لك ... ! » ولم يكد الطلاب يسمعون هذه الكلمة حتى يغرقوا في ضحك لا يَسْتَحْفُون به . وكان الأستاذ يضحك معهم ويغرق في الضحك ! وكان الفتي جريئاً عليه يجادله في الدرس فيهرقه من أمره عسراً ، وربما أضحك منه الطلاب ، لأنه كان لا يحقق ما يروى من الشعر ، ولأنَّ الفتي كان يردُّه إلى الصواب . فيظهر عليه الاضطراب . وقد حاول أن يصدِّه عن هذا الجدال ، ويصرف أترابه عن هذه الجراءة ، فدعاهم ذات يوم إلى الغداء في داره . وقدم إليهم من طيبات الطعام ما لم يكن لأكثرهم به عهد ، وظنَّ أنه قد ردَّهم إلى شيء من الحياة . ولكنه لم يلبث أن تبين أنه لم يزد على أن أطمعهم في نفسه ، ورغَّبهم في طعامه ، وزادهم عليه اجتراء . وكانت سيرة الفتي مع هذا الأستاذ الكريم مسرفة على الفتي وعلى الأستاذ جميعاً حتى أوشكت أن تترك في حياة الفتي آثاراً منكراً .

وضع الفتي رسالته التي تقدم بها للدكتوراه ، ونقد فيها أستاذه مصرحاً باسمه ، وكان الأستاذ من המתحنين ، فضايق بهذا النقد ، وأبى في أثناء المداولة أن يمنح الفتي درجة الامتياز ، ولم يكن سبيل إلى هذه الدرجة إلا إذا أجمع عليها المتحنون .

فاضطربت اللجنة إلى أن تنزل بالفتى من درجة فائق إلى جيد جداً .

وسافر الفتى إلى أوروبا فأقام بها عاماً ، ثم عاد منها في خطوط سيأتي حديثها .
وفي أثناء إقامته في مصر ذهب إلى الجامعة واستمع للدرس الأستاذ الشيخ مهدي ،
ثم خرج فكتب عن هذا الدرس مقالا في مجلة « السفور » نقد الأستاذ فيه نقداً
مراً ممضاً . وأسرع الأستاذ فكتب إلى مجلس الجامعة شاكياً من هذا التلميذ المتمرد ،
طالباً إلغاء بعثته عقاباً له على هذا التمرد ، وكان أن أمر المجلس بالتحقيق مع الفتى ،
وكلف ثروت باشا وعلوى باشا ، رحمهما الله ، والأستاذ أحمد لطفي السيد ، سؤال
الفتى عن هذا المقال ، فلم ينكر من مقاله شيئاً . ولم ير لأحد الحق في أن يعاقبه
على نقد حربىء ، لم يرد به إلا الخير ، ولم ير لأحد حقاً في أن يسأله في هذا النقد ،
وتضاحك المحققون ، وكلف مجلس الجامعة الأستاذ أحمد لطفي السيد أن يصلح بين
الأستاذ الغاضب والتلميذ المتمرد ، فحضر الأستاذ لطفي السيد ذات مساء درس
الشيخ ، ثم دعاه ودعا التلميذ إلى العشاء ، وفي العشاء كان الصلح ، وعاد الفتى
بعد ذلك إلى أوروبا موفوراً .

وكان الأستاذ الآخر الذى ملأ الجامعة فكاهة ودعابة ، وملأ الطلاب عبثاً به
واجترأ عليه ، وملأ بطون الطلاب من طعامه ، هو الشيخ طنطاوى جوهرى ، رحمه الله .
كان يدرس الفلسفة الإسلامية بعد الأستاذ محمد سلطان وبعد الأستاذ سنتلانا
خاصة . وكان يتكلم كثيراً ولا يقول شيئاً ، وكانت كلمات الجمال والجلال والبهاء
والكمال والروعة والإشراق أكثر الكلمات جرياناً على لسانه منذ يبدأ الدرس إلى أن
ينتهى ، وكان لا ينطق بكلمة منها إلا مد ألفها فأمرق في المد ، وربما أخذه شيء من
ذهول وهو يمد هذه الألف فيغرق الطلاب في ضحك يخافت به بعضهم ويجهر به
بعضهم الآخر ؛ ويفيق الأستاذ من ذهوله على هذا الضحك ، فيلوم الطلاب لا على
أنهم يضحكون ، بل على أنهم لا يشاركونه في الإعجاب بجمال الطبيعة وجمال الكون

وبهاء القمر حين يرسل ضوءه المشرق على صفحة النيل ، ويمدّ ياء النيل فيسرف في مدّها ويأخذه ذهول يرّد الطلاب إلى ضحك متصل .

وفي ذات يوم ختم الأستاذ دروس العام ، وقرر الطلبة قبل الدرس أن يكون الفتى لسانهم في شكر الأستاذ على دروسه القيمة ، واشترطوا عليه أن يشكر الأستاذ بكلام غير مفهوم ، واشترط عليه الأستاذ إبراهيم مصطفى ألا تخلو جملة من حديث الشكر هذا الذي يجب أن يكون طويلاً من إحدى هذه الكلمات الست : الجمال والجلال والبهاء والكمال والروعة والإشراق .

وقبل الفتى هذه الشروط كلها ، فخطب وأجاد ، ولكنه لم يقل شيئاً ، ورضي الأستاذ كل الرضا ، وقال للفتى : لا يكافئ هذه الخطبة الرائعة إلا ديك رومي ، ولكنك لن تأكله وحدك ، وإنما يشاركك فيه زملاؤك جميعاً . فإذا كان يوم الجمعة فأنتم تعرفون أين أقيم !

ولم يكن الأساتذة المصريون وحدهم هم الذين يملأون الجامعة فكاهة ودعابة ، ويتعرّضون لعبث الطلاب وجراءتهم الماجنة ، وإنما كان الأساتذة الأجانب مصلراً من مصادر الفكاهة وموضوعاً من موضوعات العبث . كانت لهجتهم العربية تملأ أفواه الطلاب بالضحك ، وكان منهم الذين يَلَوْنُ ألسنتهم بالعربية يقلدون هذا الأستاذ أو ذاك من أساتذتهم الإيطاليين أو الألمانين ، ولم ينسَ الفتى يوماً قرّره الطلاب أن يضربوا عن درس الأستاذ ناليو الإيطالي ، لأن إيطاليا أعلنت الحرب على تركيا ، وأرسلت سفنها غازية لطرابلس ، فأزعم الطلاب أن يجتمعوا في غرفة الدرس ، حتى إذا أقبل الأستاذ وارتقى إلى مجلسه خرجوا من الغرفة وتركوه فيها وحيداً . وقد أتمّ الطلبة ما قرّروا ، فتركوا الأستاذ وحيداً في غرفة الدرس ، ووقفوا أمام الغرفة ينتظرون ما يكون من أمره ، ولبث الأستاذ في الغرفة دقائق ثم خرج ، فأقبل على تلاميذه وقال لهم في لهجة عربية صحيحة فصيحة يلتوى بها لسانه بعض الشيء :

مثلكم مثل الرجل الذى أراد أن يغيظ امرأته فخصى نفسه !!
 وكان السهم صائباً ، وكان أثره لازعاً ممضاً ، ومنذ ذلك اليوم لم يفكر طلاب
 الجامعة فى الإضراب ، ومنذ ذلك اليوم استقرّ فى نفس الفتى بغض شديد لإضراب
 الطلاب عن الدروس مهما تكن الظروف .

وكانت دروس الآداب الإنجليزية والفرنسية تلى فى الجامعة ويشهدها الذين
 يحسنون هاتين اللغتين من الطلاب ، ويتجنبها الفتى لأنه لم يكن يعرف لغة أجنبية .
 ولكن الجامعة نظّمت ذات يوم ، وفُرضت فيها الامتحانات ، وفُرض فيها العلم بلغة
 أجنبية من هاتين اللغتين . وأقبل الفتى ذات يوم مع زميله المرصنى - والمرصنى حديث
 طويل سياتى فى إبانته - فاتفقا على أن يسمعا درس الأدب الفرنسى ، ليعرفا كيف
 تكون هذه اللغة ، فدخلوا غرفة الدرس ولبثا فيها ساعة كاملة لم يفهما فيها حرفاً مما
 سمعا ، ولم يميزا منه إلا لفظاً واحداً هو لافونتين الذى كان يتردّد كثيراً جداً على لسان
 الأستاذ .

ثم انصرفا بعد ذلك ولم يحفظا من أمر هذه الساعة إلا أنها سمياها سجن
 لافونتين . وقد كان لهذه الساعة مع ذلك فى حياتهما أثر أثير . فأما المرصنى فعُدل
 عن الجامعة ، وأعرض عنها وعن دروسها وامتحاناتها ، واتخذها مكاناً يلقى فيه
 الصديق ، ويتفكّه فيه بالعبث من بعض الأساتذة .

وأما الفتى فأزعم أن يتعلم الفرنسية حتى لا يعود إلى سجن لافونتين ، وكانت
 له فى تعلم هذه اللغة خطوب أى خطوب .

الفصل السابع

كيف نعلم الفرنسية !

كان أول عهد الفتى بدرس اللغة الفرنسية أن حدثه بعض صديقه من الأزهريين بأن مدرسة مسائية أنشئت في مكان قريب من الأزهر تدرس فيها هذه اللغة لمن يريد أن يتعلمها من المجاورين .

وكان للشيخ عبد العزيز جاويش ، رحمه الله ، يدٌ في إنشاء هذه المدرسة لم يحققها الفتى تحقيقاً واضحاً ، ولكنه ذهب إلى المدرسة فيمن ذهب إليها من الطلاب ، وسمع الدرس الأول من دروسها . ألقاه كهمل مصرى كان يحسن أن يلوى لسانه في النطق بالحروف ، وكان الفتى يبهه هذا النطق . ولكنه لم يفهم من هذا الدرس شيئاً ، فقد كان الأستاذ يرسم الحروف على اللوحة وينطق بها ، ويأخذ الطلاب بأن ينطقوا بهذه الحروف كما سمعوها منه ، وبأن ينظروا إليها مرسومة ، وينقلوها فيما أمامهم من الأوراق . وظل الفتى واجماً لا يرى الحروف ولا يرسمها . ولم يسأله الأستاذ أن ينطق بها ، وإنما كان يسأل مَنْ عن يمينه ومن عن شماله ويمرّ به هو بدون أن يلوى عليه .

وضاق الفتى بذلك أشد الضيق ، ولكنه لم يستطع أن يقول شيئاً ، ثم تفرق الطلاب وهم الفتى أن ينصرف . ولكن بدأ توضع على كتفه وصوتاً يطلب منه الانتظار ، وإذا هو الأستاذ قد استوقف الفتى ، حتى إذا خلا إليه قال له : ليس لك أرب في حضور هذه الدروس ، ولكنى أرى فيك حرصاً على تعلّم هذه اللغة وأحبّ

أن أعينك على ما تريد ، فالقني إن شئت في قهوة كوبري قصر النيل نتحدث في هذا الموضوع .

وضرب له موعداً لهذا اللقاء ، ولم يكادا يلتقيان حتى تعارفا . وإذا بينهما صلة قديمة . فقد كان أبو هذا الأستاذ قاضياً شرعياً في المدينة التي نشأ فيها الفتى ، وعليه قرأ الفتى ألفية ابن مالك . كان يختلف إليه في المحكمة ضحى كل يوم ، ويقرأ عليه باباً من أبواب الألفية . وقد اتصلت المودة بين الأستاذ الكهل وتلميذه الفتى ، ولكن دروس هذا الأستاذ لم تُغْنِ عن التلميذ شيئاً . فقد كان يحبّ كتاباً وشعراء من الفرنسيين ، فإذا خلا إلى الفتى قرأ عليه من آثار هؤلاء الكتاب والشعراء وترجم له بعض ما يقرأ ، فيزيد شوق الفتى إلى العلم بلغة هؤلاء الكتاب والشعراء لروعة ما كان ينقل إليه من آثارهم . وقد سمع الفتى من أستاذه أسماء كانت تسحره وتبهره وتملك عليه أمره كله . سمع اسم لامارتين وألفريد دى موسيه وألفريد دى ثيئى وشاتوبريان ، فكان موقع هذه الأسماء غريباً ، وكان ما ينقل إليه من كلامهم أشدَّ غرابة من أسمائهم يُبعد الفتى عن الأدب العربى وعن الشعر القديم خاصة ، ويدفعه إلى عالم آخر مجهول لا يحقّق الفتى منه شيئاً ، ولكنه يهيم بالاضطراب فيه كل الهيام . وقد اضطّر آخر الأمر إلى أن يبحث عن معلم يُلقّنه أوليات هذه اللغة تلقيناً منظماً متتجاً ، وما زال يبحث عنه حتى دل عليه .

فأقبل على دروسه كل يوم من الساعة الثانية إلى منتصف الخامسة . واستبقى مع ذلك مودة أستاذه ذلك . فكان يلتقى أستاذه النظامى كل يوم في مواعيد المحدّد ، فيتعلم منه الأوليات ، ويلتقى أستاذه الآخر مرتين في الأسبوع إذا أقبل الليل ليسمع منه تراً وشعراً ينقل إليه بعض معانيهما .

وكان الأستاذ النظامى رجلاً غريب الأطوار حقاً . كان شبيحاً قد نَفَّ على السبعين وقد حطّمته السنون ، وكان ألبانياً ، وكان قنّراً تنبوعه العيون . وكان

معدماً لا يجد ما يقوته ، وكان يصيب غداؤه مع الفتى كل يوم ثم لا يأخذ منه أجراً لدروسه . وكان سريع التعب لا يكاد يتحدث إلى الفتى دقائق حتى يدركه الإعياء فيغنى لحظة ثم يفيق ليأخذ فيما كان فيه ، ثم يعود إلى الإغفاء ، ثم يعود بعد ذلك إلى الإفاقة .

وكذلك كان الفتى يختطف دروسه اختطافاً بين يقظة الأستاذ ونومه ، وربما أحس الأستاذ شدة الحر إذا أقبل الصيف وأراد أن يتبرد ، فوقف الدرس ، وذهب إلى الحمام ، فصب على نفسه من ماء الدش ما شاء الله أن يصب . ثم عاد إلى تلميذه وقد أحدث شيئاً من نشاط ، ولكنه لا يكاد يمضى في درسه حتى تأخذه سنته تلك ، فيضطر التلميذ إلى الانتظار به حتى يفيق .

على أن هذا الأستاذ لم يلبث أن ضاق به أخوال الفتى أشد الضيق . كان يأتي إذا دنت الساعة الثانية وينصرف إذا انتصفت الساعة الخامسة ، ويترك في البيت من قذارته آثاراً غلاظاً ، بعضها حتى يؤذى ، وبعضها ميت بمحض ، حتى شكا الخادم وضاق أخوال الفتى بما كان يرى ، وبما كان يسمع . وصرف الأستاذ صرْفاً رقيقاً .

والتمس صاحبنا لنفسه أستاذاً آخر ، وجعل يستقل بين معلم ومعلم ، ويجد في هذا التنقل مشقة أى مشقة ، ومتاعاً أى متاع . تأتى المشقة من أجر الدروس الذى لم يكن له بد من أن يؤديه إلى معلميه ، ويأتى المتاع من اختلاف هؤلاء المعلمين ، وتباين أطوارهم وخصائصهم حين كانوا يتحدثون إليه ، ويُلقون علمهم عليه . حتى لى الفتى ذات يوم في الجامعة فتي كان قد ظفر بالشهادة الثانوية وتعلم في مدرسة الفرير ، فكان متقناً للفرنسية ، ولم يكد يتحدث إليه حتى ذكر صباه كله ، فقد كان هذا الفتى ابن ملاحظ الطريق الزراعية في مدينته ، وكان يختلف مع أخته إلى الكتاب الذى حفظ الفتى فيه القرآن . فقد لى الفتى إذاً رفيق صباه ، ويسر له تعلم اللغة

الفرنسية في غير مشقة ولا عناء وأى شيء أسير من أن يتعلم الفرنسية لا يدفع على تعلمها أجراً وإنما يعلم رفيقه بعض قواعد النحو والصرف !

وبفضل هذا الرفيق محمود سليمان ، رحمه الله ، خطا الفتى في درس الفرنسية خطوات بعيدة ، علمه رفيقه كما تعلم هو في المدرسة . قرأ معه الكتب الأولى ، وما زال يتدرج به من كتاب إلى كتاب حتى رأى نفسه ذات يوم يقرأ مع رفيقه قصة كانديد لفولتير ، يتعثر في فهمها تعثراً شديداً متصلاً ، ولكنه يفهم منها شيئاً . ورأى الفتى نفسه يختلف إلى دروس الأدب الفرنسي فتفوته أشياء ويصيب أشياء ، والأستاذ يعطف عليه ويرفق به ، ورفيقه يعينه على فهم ما يفوته ؛ وإذا هو يتقدم في الدرس تقدماً حسناً ، ويشعر أن أمر اللغة الفرنسية قد أصبح يسيراً ، فليس له بد من أن يحسنها ، وهو قادر على أن يحسنها إن مضت أموره على ما يجب .

ومنذ ذلك الوقت أصبحت الجامعة بالقياس إليه وسيلة بعد أن كانت غاية ، فقد ألقى الشيخ عبد العزيز جاويش في رُوعه فكرة السفر إلى أوروبا ، وإلى فرنسا خاصة ، فما له لا يفكر في هذا السفر؟ وما يمنعه أن يتغنى إليه الوسيلة؟ والغريب أن هذه الفكرة ما زجت نفسه ، وأصبحت جزءاً من حياته ، وجعل ينظر إليها لا على أنها حلم يداعبه نائماً أو يقظان ، بل على أنها حقيقة يجب أن تكون . وأغرب من هذا أن الفتى جعل يتحدث بسفره إلى أوروبا كما يتحدث الإنسان عن أمر قد صَحَّتْ عزمته عليه ، وقد تهيأت له أسبابه ، وكان يتحدث إلى إخوته وإلى أخواته إذا أقبل الصيف بسفره إلى أوروبا قريباً . وكان يغيظ أخواته بأنه سيقم في أوروبا أعواماً ، ثم يعود منها وقد اختار لنفسه زوجاً فرنسية متعلمة مثقفة تحيا حياة راقية ممتازة ، ليست جاهلة مثلهن ، ولا غافلة مثلهن ، ولا غارقة في الحياة الخشنة الغليظة مثلهن . وكان أخواته يتضحكن حين يسمعن منه هذا الحديث ، وربما أضحكن به أم الفتى وأباه .

وكان الفتى يقول لمن : « اضحك اليوم فسترين غداً ! »

وفي ذات يوم قرأ صاحبنا في الصحف إعلاناً من الجامعة تطلب فيه إلى الشباب أن يستبقوا إلى بعثتين من بعثاتها في فرنسا . إحداهما للدرس التاريخ ، والأخرى للدرس الجغرافيا . ولم يكده يفرغ من قراءة هذا الإعلان حتى استقرّ في نفسه أنه صاحب إحدى هاتين البعثتين ، وأنه سيعبر البحر إلى باريس للدرس التاريخ في السوربون . وإذا هو يكتب إلى رئيس الجامعة الأمير أحمد فؤاد هذا الكتاب :

« دولتو أفندم رئيس الجامعة المصرية

« أرفع إلى دولتكم وإلى مجلس إدارة الجامعة ، أتى قرأت في الصحف إعلان الجامعة ، أنها سترسل طالبي إلى أوروبا لدرس التاريخ وتقويم البلدان . وأنا شديد الحرص على أن أكون أحد هذين الطالبين ، وعلى أن توجهني الجامعة إلى فرنسا لدرس التاريخ . واعتقادي أن الجامعة إنما تجعل مقياسها في اختيار الطلبة الكفاءة الحقيقية . وعلى ذلك أتشرف بأن أؤكد لدولتكم وللمجلس الإدارة أن الجامعة قد جعلتني فيها أعتقد ، كفتاً لخدمتها بما علمتني من علم نافع ، وما أدبتني به من أدب مفيد .

« وأنا على يقين أن الجامعة مستفيدة مني كثيراً إن قبلتني خادماً لها ، وهي لن تجني مني إلا ثمر غرسها الطيب في مصر وفي أوروبا .

« نعم ، إن الشروط التي تشرطها الجامعة في طلبة الإرساليات ينقصني بعضها ، فإني لم أحصل على الشهادة الثانوية ، كما أتى مكفوف البصر . ولكني أعتقد أن نقصان هذين الشرطين لا يضرن شيئاً . فأما الشرط الأول فلا يضرن نقصانه ، لأن ما سمعته في الجامعة من العلم وما أدبته فيها من الامتحان ، وما أحرزته من الدرجات العظمى في جميع العلوم التي امتحنت فيها ، وهي علوم الجامعة كلها



إلا الآداب الأجنبية ، وما تشرفت به في إثر ذلك من رضا مجلس الإدارة على ،
 وثناء الأساتذة غائبهم وحاضرهم على كل ذلك ، يقوم مقام الشهادة الثانوية ويزيد
 عليها من غير شك ولا ريب ، ولا سيما أنى شارع في تعلم الفرنسية حتى إلى لأفهم
 بها غير قليل ، وقد أتممت منها مقداراً يمكنني من دخول الجامعة في فرنسا بعد أشهر
 أقضيها هناك ، ويضاف إلى ذلك أنى أتممت في الجامعة درس تاريخ الشرق القديم
 ونلت فيه الدرجة العظمى ، ودرس تاريخ الإسلام ، ونلت فيه أعظم درجة نالها طالب
 في الجامعة ليس بيني وبين النهاية إلا درجة واحدة ، وأتممت درس اللغات القديمة
 السامية ونلت فيها الدرجة العظمى أيضاً . وتلك مزية لم تجتمع لأحد من الطلبة
 المصريين في مصر . ولست أريد أن أتمدح بهذا ، وإنما أريد أن أتحدث بفضل
 الجامعة على ، وأن هذا الفضل يجعلني أكثر الناس كفاءة لدرس التاريخ وخدمة
 الجامعة فيه .

« أما الشرط الثاني وهو فقدان البصر فليس يمنعني أن أسمع دروس الأساتذة
 ولا أن أؤديها ، أى ليس يمنعني أن أكون طالباً وأستاذاً ، وإذا كان قضاء الله
 قد قضى على هذه البلية فقد عوضني منها خيراً . وأنا أجلّ المجلس عن أن يتخذ
 بليّة كهذه عقبة تحول بيني وبين ما أريد من الخير لنفسى وللجامعة .

« حقاً إن الجامعة إذا قبلت هذا الطلب فستضطر إلى أن تزيد في نفقتي
 ما يمكنني من الاستعانة بمن يكون معي في فرنسا ، ولعمري لئن فعلت ذلك ،
 فليس بضائر لها ، بل هو يدل على كرم نفس وعلى تضحية في معونة من يحتاج
 إلى الإعانة والتعصيد .. على أنى مستعد لأن تسترد الجامعة مني بعد عودتي من أوروبا
 ما أنفقته على زيادة على النفقات العادية تأخذه من مرتبي أقساطاً . وما أظن الجامعة
 نكره أن تفضل على بهذا القرض الجميل .

« لذلك كله أرفع إلى دولتكم وإلى مجلس الإدارة هذا الطلب راجياً أن تفضلوا بقبوله . ولكم الشكر الجميل والثناء المحمود .

طه حسين

طالب بالجامعة المصرية »

وعرض هذا الكتاب على مجلس الجامعة فلم يلقَ منه إلا الرفض ، لأن صاحبه لا يحمل الشهادة الثانوية ، بحكم آفته التي امتحن بها . ولأن إرساله إلى أوروبا سيكلف الجامعة نفقات إضافية تعين الفتى على أن يكون له رفيق بعينه على الاختلاف إلى الجامعة وقراءة ما يحتاج إلى قراءته من الكتب . ولكن هذا الرفض لم يقلّ عزم الفتى ولم يثبط همته . وإذا هويكتب إلى رئيس الجامعة هذا الكتاب الجديد :

« دولتوأندم رئيس الجامعة المصرية

أرفع إلى دولتكم وإلى مجلس الإدارة أنى كنت قد طلبت إلى الجامعة الإذن لى فى أن أكون من إرساليتها فى أوروبا . ورفض المجلس هذا الطلب فى جلسته الأخيرة لأنه يخالف قانون الإرسالية . وإنى لأعلم حق العلم قبل أن أرفع طلبى ذلك إلى دولتكم وإلى المجلس أنه يخالف القانون . ولكنى طلبت الاستثناء ورغبت فيه لما بينت فى ذلك الطلب من رغبى فى العلم وحرصى على خدمة الجامعة ولما اكتسبت بفضل الجامعة على من المزايا التى تؤهلنى لبلوغ هذه المرتلة ؛ ولست أنكر على المجلس رفضه لهذا الطلب فإنه لم ينفذ إلا القانون ، وما كان تنفيذ القانون بالأمر الذى ينكر أويعب ، غير أنى أعيد هذا الطلب إلى المجلس راجباً فى أن يعيد النظر فيه ، فإنه لم يرفض ذلك الطلب بالماضى إلا لأمرين مجتمعين أو كل منهما على حدة .

« الأول أنى لا أحمل الشهادة الثانوية لأنى مكفوف البصر ، ولكن المجلس

أجلّ عندي من أن يحسب لهذا الأمر حساباً ، فإنه لا يمنعني أن أكون طالباً وأستاذاً بدليل أن المجلس نفسه يقبلني طالباً متسبباً في الجامعة أسمع دروسها وأجوز امتحاناتها وأنال شهادتها . وإذا كانت الطبيعة قد حالت بيني وبين كثير من نعم الحياة ، فما ينبغي أن تكون الجامعة عوناً للطبيعة على حرمانى لذة الانتفاع بالعلم والنفع به ، مع أنها تعلم أنى على ذلك أقدر ما أكون .

« الثاني احتياج الجامعة إذا أرسلتنى إلى أن تنفق على أكثر من نفقتها العادية على طلابها في أوروبا . وأنا أعترف بأن للجامعة الحق في تقدير هذا المانع المالى ومراعاته وأن لها ألا تشتري خدمتى بهذا الثمن الغالى لأنى لا أستحقه ولأنها لا تجده .

« ولذلك أتشرف بأن أرفع إلى المجلس من جديد أنى لا أطلب من النفقات إلا المقدار الذى يطلبه غيرى من الطلاب وعلى أن أقوم بما أحتاج إليه مما يزيد على هذا المقدار ، ففعل ذلك كله يشرفنى بقبول المجلس طلبى هذا مقدراً حرصى على طلب العلم في غير مصر مع ما أحتمله في سبيل ذلك من الآلام والعناء ، فإن هذا أدعى إلى قبول الطلب وتقريره مع الشكر الجميل والثناء الجزيل .

طه حسين ،

٥ مارس سنة ١٩١٣

وكان المجلس قد ضاق بهذا الكتاب الجديد ، فرفضه كما رفض الكتاب الأول ، وسبب الرفض بأن الفتى لا يعرف اللغة الفرنسية حقّ معرفتها .

وأراد المجلس أن يهون هذا الرفض على الفتى ، فصاغه في صيغة التأجيل حتى يحسن هذه اللغة مطعماً إلى أنه لن يجد إلى إحسانها ميلاً ، تحول بينه وبين ذلك آفته تلك ، ويعينها على ذلك فقر الفتى وإصفراده من المال . فلم يزد الفتى إلا عزيمة وتصميماً ، وكتب إلى رئيس الجامعة بعد شهر هذا الكتاب الثالث :

« صاحب السعادة رئيس الجامعة المصرية

أعود الآن فأرفع إلى سعادتكم وإلى مجلس إدارة الجامعة رغبتى فى السفر إلى أوروبا لدرس العلوم الفلسفية أو التاريخية موفداً من قبل الجامعة ، بعد أن رفضت هذا الطلب فى السنة الماضية . فقرر مجلس الإدارة تأجيل سفرى إلى هذه السنة ريثما أقوى فى اللغة الفرنسية . وإذا كنت قد وصلت من هذه اللغة إلى مقدار لا بأس به ، وسأقدم فى هذه السنة لامتحان شهادة العالمية فى قسم الآداب ، فأنا أرجو أن يتفضل مجلس الإدارة فيوفى لى وعده الكريم مع الشكر والثناء .

طه حسين

١٩ يناير سنة ١٩١٤

واضطر مجلس الجامعة إلى نوع من التحدى فقرّر النظر فى إيقاف الفتى إلى أوروبا إذا ظفر بشهادة العالمية (الدكتوراه) . ولم يكن أحب إليه من هذا التحدى ، فأقبل على العناية بالدرس وإعداد الرسالة للامتحان ، وتقدم لهذا الامتحان ، وظفر بإجازة الدكتوراه ، ولهذا كله حديث يطول .

الفصل الثامن

ثلاث تجارب..

واتصلت أسباب الفتى بثلاثة من الصديق غير صاحبيه الزناتى والزيات . كان لكل واحد منهم أثر أرى أثر فى حياته الجامعية . وكان لاثنين منهم أثر بعيد عميق فى حياته بعد أن جاوز طور الطلب وأصبح أستاذاً ومؤلفاً . عرف أحد هؤلاء الثلاثة فى الجامعة ، كان يختلف مثله إلى دروسها ، ولم يكن أزهرى النشأة ، وإنما كان من فئة المطربشين . كان متوقد الذهن ، نافذ الذكاء ، قوى الذاكرة ، محباً للدرس . وكان إلى ذلك حلوا الروح ، رقيق الصوت ، ساهر الحديث . وقد ألفه الفتى فى دروس اللغات السامية ، وبفضله استطاع أن يفرغ لهذه الدروس ، ويحسن العناية بها ، ويحفظ كثيراً من النصوص السريانية عن ظهر قلب . كان رفاقه الأزهريون ينفرون من هذه الدراسات ويكرهون أن يثقلوا على أنفسهم بها . وكان ذلك الصديق لها محباً وبها كلفاً . فكان يلقي الفتى فى دروس الأستاذ ليتان فيكتب عن الأستاذ كل ما كان يقول ، وكان يخلو إلى صديقه بعد ذلك فيعيد معه الدرس والاستظهار . ولم ينس الفتى يوماً احتفل فيه طلاب الجامعة بوداع أستاذهم ليتان فى آخر العام بفندق من فنادق مصر الجديدة . وشهد هذا الاحتفال أساتذة الجامعة من المصريين والمستشرقين ، وخطب الطلاب مثنين على أستاذتهم . فأكثروا ، ثم قام هذا الصديق فأنشأ على الأساتذة المستشرقين . وعلى الأستاذ ليتان خاصة . ولكنه لم يخطب باللغة العربية ولا بلغة أوربية ، وإنما ألغى كلمته باللغة السريانية ، وتصور رضا

الأساتذة الأجانب عنه وإعجابهم به واعتباط الأستاذ ليمان بما أتبع له من نجاح ، وبأن تلميذاً من تلاميذه المصريين قد استطاع أن يخطب بهذه اللغة القديمة التي لا تجرى بها الألسنة إلا في بعض الكنائس وفي قاعات الجامعات بين الأساتذة والطلاب .

وقد رأى الفتى أستاذه ليمان بعد ذلك مرات كثيرة في مواطن مختلفة ، فلم يحس عنده مثل هذه السعادة إلا في موطنين اثنين : أحدهما في ليدن بهولندا عندما سمع تلميذه الفتى يلقي بحثه في مؤتمر المستشرقين ، فلم يملك دموعه التي أخذت تفيض على وجهه بين الزملاء ، والآخر في كلية الآداب بجامعة القاهرة عندما شارك تلميذه في امتحان السيدة سهير القلماوى لدرجة الماجستير ، وأعلن مفخراً بعد فوزها بالدرجة أنه مغتبط سعيد ، لأنه يشارك في تخريج هذه الفتاة التي يعدها حفيدته ، لأنها ابنة تلميذه ذاك الفتى . وما أكثر ما تحدث بعد ذلك بأنه جد في علم له ابن وله حفدة .

أما الصديق الثانى فقد كان أزهرياً مُبَغِضاً لدروس الأزهر ، شديد النفور منها ، قليل الإلمام بمجالس الشيوخ ، غير حنّ بالجامعة ولا مكترث لها ولا مختلف إليها ، ولم يعرفه الفتى في الأزهر ولا في الجامعة ، وإنما عرفه في قهوة الكلوب المصرى قريباً من سيدنا الحسين . وكان غريب الأطوار ، يضحك من نفسه ، وربما أغرى الناس بالضحك منه .

كان من أهل القرن الثالث أو الرابع ، وكان يعيش في القرن الرابع عشر للهجرة . كان قليل الاحتفال بزيّه وشكله وزيّته ، يهمل هذا كله إهمالاً ظاهراً . ربما تكلفه ممعناً في مخالفة الناس . وكان معنياً باللغة يحدّ في إتقانها ويتتبع غريبها ، فيحفظه ويحصي نوادره . وكان مع ذلك مشغولاً بالحياة الحديثة يأخذ منها طيباتها حين تتاح له ، ويكره أن يتعمّقها أو يعرف دقائقها ، وحاول أن يتعلم الفرنسية فلم يحسن

منها إلا تحية الصباح وتحية المساء وجمالاً قصاراً ، يلقيها بعض الناس إلى بعض حين يلتقون . ثم ضاق بها فأعرض عنها ، واكتفى من الحياة الحديثة بما كان يصيب من طيباتها بين حين وحين .

وكان قد أقبل من أقصى الصعيد ، واحتفظ بلهجته تلك فلم يكدها بغير منها شيئاً . وكان ربما أضفى هذه اللهجة على تلك الجملة الفرنسية التي كان يلقيها فيضحك منها ويضحك الناس .

وبفضل هذا الصديق استطاع الفتى أن يقرأ آثار أبي العلاء عندما حاول أن يضع رسالته لئيل درجة الدكتوراه من الجامعة . كان يغدو عليه في داره بدرب الجاميز إذا كان الضحى ، فلا يفارقه إلا إذا أقبل الليل . وكان يقرأ له اللزوميات وسقط الزند وما شاء مما حفظ عن أبي العلاء . كان يقرؤه متغنياً به غناء عذباً . وكان الفتى يسمع منه ويحفظ عنه ، ويضطرب لإنشاده وغنائه ، وما زال كلما قرئ عليه شعر أبي العلاء لم يسمع صوت قارئه ، وإنما يسمع صوت صديقه ذلك مترنماً بهذا الشعر في صوته ذاك العذب الذي كان يضطرب بين الخشونة واللين .

ولم يذكر الفتى كم مرة قرأ شعر أبي العلاء وثره مع صديقه ذاك ، ولكنه عرف أنه قرأه مرات كثيرة وتأثر به أعمق التأثر ، وآمن به أشد الإيمان . واستيقن أن حياة أبي العلاء تلك هي الحياة التي يجب عليه أن يحياها ما استطاع إلى ذلك سبيلاً .

ورأى الفتى نفسه ذات يوم مستعداً لإملاء رسالته ، فتجرد صديقه ذاك للكتابة ، وجعل الفتى يملئ ، والصديق يكتب ، فإذا احتاج إلى الاستشهاد بشعر أبي العلاء أو ثره أو بما شاء الله أن يستشهد به من كلام القدماء بحث الصديق له عن هذه النصوص وأثبتها في مواضعها من الرسالة . وفي أشهر قليلة ثم الإملاء وتمت الكتابة ، وقرأ الصديق على صاحبه رسالته متغنياً بنثرها وشعرها ، كما كان يتغنى بنثر أبي العلاء وشعره ، واطمأن الفتى إلى رسالته ، وأزمع أن يقدمها إلى الجامعة . ولكن كيف السبيل



إلى تقديمها وليس عنده منها إلا هذه النسخة التي كتبها الصديق وعليه أن يقدم
منها نسخاً خامساً ؟

وهنا يظهر الصديق الثالث فيحمل عن الفتى ثقل هذا العناء . وكان هذا الصديق
الثالث أزهرى النشأة أيضاً . ولكنه كان من طراز آخر مخالف كل المخالفة لمن عرف
الفتى في الأزهر والجامعة من الرفاق . كان حسن الصورة ، وسم المنظر ، رائق
الشكل ، معنياً بزبه أشد العناية ، يتكلف فيه الأناقة وينسق بين ألوانه تنسيقاً .
وكان شديد علوية الصوت ، ممعناً في خفة الروح ، ظريفاً لبقاً مترفاً إلى حد ما .
كان أبوه شيخاً كريماً مسيراً عليه في الرزق ، ميسوط اليد في الإنفاق على ابنه ذاك ،
ولكنه كان على ذلك معتدلاً محافظاً على التقاليد . وكان ابنه طموحاً إلى مزيد
من نعم الحياة ، وما أباح الله من طياتها . فلم يكفِهِ ما كان أبوه يعطيه من المال ،
فسعى حتى أصبح مدرساً في كلية الفرير ، ليضيف نفقة إلى نفقة ، وليحسن العناية
بنفسه وزينته . وكان أبوه يرى ذلك فلا يصدّه عنه ، وإنما ينظر إليه مبتسماً مشجعاً ،
يرى أن خير ما يصنع الشباب إنما هو الجِدُّ والعمل والاعتماد على النفس وكسب
المال ، ما وجدوا إلى كسبه سبيلاً . وكان الفتى ورفاقه ينظرون إلى هذا الصديق
في شيء من الإعجاب به والثناء له . يعجبون به لثرائه وظرفه ، ويرثون له لأنه لم يكن
يحبّ الدرس ، ولم يكن يتعمّق لوناً من ألوان العلم . وإنما كان يلمّ بهذا كله إماماً .
يختلف إلى دروس الأزهر ليسخر من الشيوخ والطلاب ، ويختلف إلى دروس الجامعة
ليلقى أترابه وليتحدث عن الجامعة بين زملائه من المصريين والفرنسيين في كلية الفرير .
وكان يضحك من كل شيء ، ومن كل إنسان ، ويتندر بكل شيء وبكل إنسان ،
ويرى الحياة فكاهة حلوة يجب أن يأخذ الإنسان منها خير ما فيها .

كان في السابعة عشرة أو الثامنة عشرة من عمره ، وحدثته نفسه بأن ليس له من
الزواج بدّ ، فلما كلم أسرته في ذلك سخرت منه وهزئت به . وقال له أبوه في دعة

ورضاً : ما زال بينك وبين الزواج وقت طويل وعمل ثقيل .
ولكن الفتى صمّم على الزواج ، وأزمع أن يُكرِه أهله على أن يزوّجوه . وكان له ما أراد ، لأنه اصطنع الجنون إذا دخل داره . فكان عاقلاً بين رفاقه في الأزهر والجامعة ، وكان مجنوناً إذا أغلق الباب من دونه في منزله ذلك عند سيدنا الحسين . كان لا يكاد يدخل الدار حتى يؤذن أهله بمقدمه رافعاً صوته ما استطاع بهده الكلمة التي كانت تخيفهم كل الخوف : « جنان » ، ثم يأخذ في تحطيم ما يستطيع تحطيمه ، وفي إفساد نظام الدار حتى يضطر أهله إلى اصطناع شيء من القوة لردّه إلى بعض الهدوء . وما زال يعقل بين رفاقه ويخجّ بين أهله حتى أصبح زوجاً ، وحتى رزق الولد ، قبل أن يبلغ العشرين .

وأقبل ذات يوم على رفاقه متحدياً أيهم يستطيع أن يورخ له بالشعر مولد الصبية التي ولدت له صباح ذلك اليوم . فلما لم يجد عند رفاقه شيئاً أنشدتهم شعره الذي ختمه بتاريخ مولد تلك الصبية . ثم دعاهم إلى غداء أعدّه لهم ، فأطعمهم في نفسه منذ ذلك اليوم . وكانوا كلما أرادوا أن يدعوهم إلى غداء أو عشاء تملقوه بالشعر ، يميّتون قليلاً ويعبثون في أكثر الأحيان ، ويستجيب لهم هودائماً .

وأقبل ذات يوم لا يملك نفسه من الإغراق في الضحك حتى ظن به أصحابه الجنون . وحدّتهم بعد أن أفاق بأن الذين رأوه بين داره وبين الأزهر ظنوا به الجنون أيضاً . وكان مصدر إغراقه في الضحك أنه اجتمعت له طائفة حسنة من الجنيات ، فاشتري لنفسه خاتماً له فص من ألماس نفيس ، ورأى أبوه هذا الخاتم ، فلما سأل عن ثمنه أنبأه بأنه اشتراه بأربعين جنيهاً . فقال الشيخ ساخراً : لقد فسد الزمان ! ما رأيت قبل اليوم قط قتي يحمل في أصبعه أربعين إردباً من القمح .

وجعل الفتى يتصور هذا المقدار الضخم من القمح وقد كدّس بعضه على بعض ، وأقبل هو فحملة بأصبع واحدة . وكانت هذه الصورة هي التي أغرته بالضحك ،

ودفعته إليه حتى عرّضته لتهمة الجنون .

لقد هذا الصديق صاحبه الفتى ذات مساء فى قهوة الكلوب المصرى . وكان الفتى ذاهلاً يفكر فى رسالته كيف يقدمها إلى الجامعة وليس عنده منها إلا النسخة التى أملاها . وهو لا يعرف كيف يكتب النسخ الأربعة الأخرى ، فلما عرف صديقه منه ذلك قال له متضاحكاً : « هون عليك .. فلن تنقضى أيام حتى تقدّم رسالتك إلى الجامعة » . ثم أصبح فاشتري أداة من أدوات الطبع على البلوطة ، واستأجر ناسخاً كتب الرسالة بالحبر الذى يلائم تلك الأداة ، وأعد من الرسالة نسخاً قدمت إلى الجامعة . وأصبح الفتى أول طالب مصرى يشرح نفسه فى الجامعة المصرية للظفر بدرجة الدكتوراه .

وأقبلت بشائر الصيف ، وحُدّد اليوم الذى تناقش فيه رسالة الفتى . وأقبل القتيّة الأزهريون فى مساء ذلك اليوم على الجامعة يحيطون بصديقهم مشجعين له . يُحيون فى نفسه الأمل ويَزيّنون فى المستقبل الذى ينتظره ، إلا ذاك الصديق الذى طبع له الرسالة . فقد كان يتحدث إليه حديث المنذر المخنّز ، لا حديث المشجّع المؤمل . ينتزه بقسوة המתحنيين ، ويحذره من أن يكون له فى الجامعة يوم كيومه فى الأزهر ، ويؤكد له أنه ليس مستعداً لأن يقدم له بعد رسوبه فى الامتحان الثانى صينية المكارونة تلك التى قدمها إليه بعد رسوبه فى الأزهر .

ولكن الفتى لم يرصب فى هذه المرة ، وإنما ثبت لأساتذته الذين جادلوه وألحوا عليه فى الجدال ، وظفر منهم بعد لأيٍ بدرجة الدكتوراه . وسجلت الجامعة هذا الامتحان ونجاح الفتى فيه بهذا المحضر :

« فى الساعة الخامسة من مساء يوم الثلاثاء خامس مايو سنة ١٩١٤ اجتمعت بدار الجامعة لجنة امتحان العالمية المؤلفة من الأستاذ محمد الخضرى رئيساً والأستاذين

محمد المهدي ومحمود فهمي المدرسين بالجامعة والأستاذين إسماعيل رأفت بك وعلام سلامة المنديين من نظارة المعارف العمومية أعضاء لامتحان ... الطالب بالجامعة المصرية وكان اجتماعها بهيئة علنية .

ناقشت الطالب في رسالته التي قدمها في تاريخ أبي العلاء المعري ، ثم في العلمين اللذين اختارهما وهما الجغرافيا عند العرب والروح الدينية للخوارج ، واستمرت المناقشة ساعتين وسبع دقائق . وبعد نهاية الاختبار اجتمعت للمداولة فيما يستحقه الطالب من الدرجات فقررت أنه يستحق :

(أ) درجة جيد جداً في الرسالة .

(ب) درجة فائق في الجغرافيا عند العرب .

(ح) درجة فائق في الروح الدينية للخوارج .

وفي منتصف الساعة الثامنة أعلنت هذه النتيجة للجمهور وسط قاعة الامتحان .

رئيس لجنة الامتحان

محمد الخضري

٥ مايو سنة ١٩١٤ .

وتلقت الجماعة الضخمة التي كانت تضيق بها القاعة هذا الإعلان بالتصفيق الشديد الملح . ثم وقف علوى باشا - رحمه الله - فأعلن أنه تبرع بجائزة قدرها عشرون جنيهاً لأول طالب تخرج في الجامعة المصرية . فاتصل التصفيق . ثم تفرق الجمع ، وانصرف الفتى مع رفاقه فأنفقوا ساعات في بيت الزيات لم يتحدثوا فيها إلا بأمر الرسالة والامتحان وما أتبع لصديقهم من فوز .

ولم يزم الفتى من ليلته تلك .. حال الابتهاج بينه وبين النوم ، وهو يعلم أنه ما أحسن السعادة قط كما أحسها في ذلك اليوم وفيما تلاه من الأيام ، لا لأنه ظفر بهذه

الدرجة الجامعية ، ولا لأنه كان أول ظافرها ، ولا لهذه الاحتفالات التي أقيمت له .
 ولا لكثرة ما تحدثت الصحف عنه وعن فوزه ، ولا للعشرين جنيهاً التي أجازها بها
 علوى باشا ، والتي كانت تزيد على مرتب أبيه عن شهر كامل ملؤه الجهد والكد
 والعناء ، بل لشيء آخر بعيد عن هذا أشد البعد ، قريب منه أشد القرب . وهو أنه
 قد قبل تحدثى الجامعة وظفر بدرجة الدكتوراه ، وأصبح سفره إلى فرنسا ديناً له على
 الجامعة ليس لها بد من أن تؤديه إليه .

وكانت حياته في الأشهر التي أنفقها في مصر قبل أن يعبر البحر حلماً حلواً .
 متصلاً ، ولكنها على ذلك لم تخل من أيام شداد .

الفصل التاسع

الفلسفة المفسدة !

ولم تمض أيام بعد فوز صاحبنا في الامتحان ، حتى دعتة الجامعة ، وأنبأته بأنه سيشفرف بالمثلول بين يدى الحضرة العلية الخديوية ، من غد ، إذا كانت الساعة الخامسة بعد الظهر ، وأن عليه أن يتها للسفر إلى الإسكندرية ظهر الغد ، وسبقده إلى الجناب العالى ، حضرة صاحب السعادة أحمد شفيق باشا الذى سيسافر إلى الإسكندرية في نفس الموعد وفي نفس القطار .

وَجَمَّ الفتى لهذا النبأ وجوماً معقداً حقاً ، كان فيه السرور والغرور ، وكان فيه الخوف والفرق ، وكانت فيه حيرة أى حيرة .. فليس قليلا على ذلك الفتى الأزهرى الفقير الضرير أن يرقى في هذه السرعة إلى حيث يلقي صاحب العرش ، وأين هو من صاحب العرش ؟ .. وأين صاحب العرش منه ؟ ! ..

وكيف السبيل إلى الإسكندرية ومع من يسافر ؟ ! وغلامه ذاك الأسود لا يحسن أن يصاحبه في شوارع القاهرة إلا في كثير من الجهد والعناء ، فكيف بمصاحبته إلى هذه المدينة البعيدة الغريبة التى تقوم على ساحل البحر في أقصى الأرض ؟ وكيف يصاحبه إلى القصر ، وكيف يكون دخوله على الأمير ؟ ..

ثم في أى هيئة يدخل على الأمير ؟ ! .. أفى ثيابه تلك الرثة التى لم يكن يرضى عنها ولا يطمئن إليها ولا يظهر فيها لنظرائه إلا في شىء من الكره والحياء ! .. أم في ثياب أخرى تليق بلقاء الأمير ، ومن له بهذه الثياب ؟ .. وماذا يصنع بعد أن يخرج

من القصر ؟ وأين يقضى ليلته في هذه المدينة الغريبة ؟ .. ومن له بما تحتاج إليه هذه الرحلة من النفقات ؟ وهولا يملك إلا قروشاً لا تتجاوز العشرة ، ولا سبيل له إلى أن يطلب إلى أخيه شيئاً ، فلم يعرف أخوه قط كيف يكون عنده أكثر من جنيه ينفق منه حتى إذا أتى عليه تكلف الاقتراض من صديقه هذا أو ذاك ، حتى يكون أول الشهر ..

ازدحمت هذه الخواطر على الفتى فشغلته عن أن يرجع الجواب على سكرتير الجامعة ، حين أتى إليه هذا النبأ السعيد .. وكان السكرتير قد أحس شيئاً من حيرته فقال له متلطفاً : سيكون سفرك إلى الإسكندرية ورجوعك منها على نفقة الجامعة ..

فابتسم الفتى في مرارة ، ولم يزد على أن شكر ثم انصرف .
ورآه مساء ذلك اليوم راضياً مغتبطاً في الكلوب المصري ، يضحك ملء شديقه .
فقد تلقى صديقه ذلك الموسر الذي كان يحمل في أصبعه أربعين إردباً من القمح ، لقيه ولم يطلب إليه شيئاً ، وإنما أنبأه بأنه مسافر من الغد في صحبة شقيق باشا للتشرف بلقاء الأمير . قال الصديق مبتهجاً : فساكون رفيقك في هذه الرحلة .. وستريح غلامك هذا الذي أثقلت عليه في هذه الأيام .

ثم سكت لحظة كأنه كان يفكر في شيء .. وأحس الفتى - وإن لم ير - أن صديقه كان ينظر إليه نظرة فاحصة .. ثم انقطع الصمت ، وقال الصديق : ألم يعلن علوى باشا أنه قد أجازك بعشرين جنيهاً ؟ ..

قال الفتى : بلى .

قال الصديق : فهلمّ معي ، فليس لك بدّ من ثوب تلقى فيه الأمير .

قال الفتى : وأى ثوب ؟ ..

قال الصديق : اصحبني ، ولا عليك .

ثم مضى معه إلى حيث اشترى له معطفاً من هذه المعاطف التي كان الأزهريون يسمونها الكاكولا ، ولم يكد الفتى بدخل فيها ويجمع طرفها على صدره بأزراره تلك حتى أحس كأن شخصه قد تغير ، وكأنه قد خرج من طور من أطوار حياته ، ودخل في طور جديد .

ولم يرد الفتى أن يبرح القاهرة دون أن يلتقي أستاذه لطفى السيد ، فسمى إليه حين ارتفع الضحى من الغد ، وتلقاه الأستاذ حفيهاً به ، فضمه إليه وقبله ، وقال : امض مصاحباً ، واذكر أنك في أول الطريق .

ورأى الفتى نفسه في قطار الإسكندرية ، وفي الدرجة الأولى التي لم يعرفها قبل ذلك اليوم . ورأى نفسه بين صديقه ذاك وبين شفيق باشا رئيس الديوان الخديوي ، وهم يأخذون في أطراف من الحديث ، والباشا يقصّ عليهما فتناً من حياته حين كان طالباً يختلف إلى دروس العلوم السياسية في باريس أو في لوزان . والفتى يسمع ويرى نفسه مختلفاً بعد وقت يقصر أو يطول إلى دروسه في السوربون ، وتعرض له في باريس خطوب لا تشبه الخطوب التي عرضت له حين كان يختلف إلى دروسه في الأزهر أو في الجامعة .

فإذا بلغ القطار مدينة الإسكندرية ذهب الفتى وصاحبه ، إلى القصر في عربة فخمة كانت تنتظر الباشا في المحطة ، والفتى ينكر نفسه ، وينكر هذا الترف الذي لا عهد له به ، وهو في الوقت نفسه حائر ذاهل يفكر فيما سيمسح من الأمير وفيما سيقول له .

وقد أدخل على الأمير . فإذا هو يلتقي رجلاً كثيره من الرجال الممتازين الذين كان يلقاهم في الجامعة من أعضاء مجلسها ، وإذا هذا الرجل يلقاه في ساحة سمحة بريثة من التكلف ، وإذا هو يأخذ بيده فيجلسه على أريكة ويجلس عليها إلى جانبه ، مهتماً له بفوزه ، متمنياً له الخير والنجاح فيما يستقبل من الأيام .

سائلا إياه بعد ذلك عما يريد أن يصنع بعد أن ظفر بدرجته تلك
قال الفتى : سأحاول السفر إلى فرنسا لأدرس الفلسفة أو التاريخ .
قال الأمير : إياك والفلسفة . . . فإنها تفسد العقول ! . . .

وكان الإنكار قد ظهر على وجه الفتى ، ففضى الأمير قائلا : بل هي
لا تفسد العقول وحدها ، ولكنها تفسد اللوق أيضاً . . لقد ذهبت إلى باريس
منذ سنين ، واستقبلني الطلاب المصريون هناك ، وكانوا جميعاً حاسرى الرؤوس
في أيديهم قلانسهم إلا واحداً منهم كان حاسر الرأس كزملاته ولكنه لم يكن يمسك
قلنسوة وإنما كان يمسك طربوشاً في يده . . فلما سألت عن هذا الفتى أنبئت بأنه
منصور فهمى ، وبأنه يدرس الفلسفة . فعلمت أن الفلسفة قد أفسدت عليه عقله
وذوقه جميعاً . فصاحب الطربوش لا يرفعه عن رأسه ولا يأخذها بيده حين يلتقى
الخدبو ، وصاحب القلنسوة لا يتركها على رأسه وإنما يأخذها بيده في مثل هذا المقام ،
ولكن صاحبنا كان يدرس الفلسفة !

ثم أغرق في ضحك متصل ، والفتى مغرق في الوجوم . . .
فلما سكنت عنه الضحك ، قال وهو يضع يده على ركة الفتى : ستسافر
إلى فرنسا ، ولكن لا تدرس الفلسفة وعليك بالتاريخ فإنه علم عظيم . . .
ثم أعرض عن الفتى وأخذ يتحدث إلى شفيق باشا في رطانة تركية لم يفهم
منها الفتى قليلا ولا كثيراً . ووقف بعد دقائق ، فوقف الفتى وصحبه شفيق باشا إلى
خارج الغرفة حيث كان ينتظره صديقه ذاك . .

فودّعه شفيق باشا وأسلمه إلى صاحبه وعاد هو إلى الأمير .
وانسل الصديقان من القصر ، لا يحفل بهما أحد ولا يلتفت إليهما أحد .
وخرجا من القصر فلم يجدوا عربة تنتظرهما ، وإنما مضيا أمامهما يقصّ الفتى على
صديقه حديث الأمير إليه ، والصديق يضحك . ثم يقول : هلم إلى مكتب

التلغراف لنتبئ الجامعة بانتهاه المقابلة . ثم نخلص لانفسنا .

قال الفتى : فستبئ الجامعة غداً حين نعود .

قال الصديق : اسكت يا أحمق ، فإن هذه البرقية ستكون أعظم خطراً وأبعد أثراً من المقابلة نفسها ، سيقروها أعضاء مجلس الإدارة ، وستقضى علي ترددهم في إرسالك إلى فرنسا .

وذهبا إلى مكتب التلغراف ، وكتب الصديق إلى الجامعة هذه البرقية ، لم يؤامر فيها الفتى ، وإنما قرأها عليه بعد أن انصرفا من المكتب :

« حضرة سكرتير الجامعة المصرية بالقاهرة

لبشنا في حضرة الجناح العالى ربع ساعة لقينا فيه من لطف المليك وعطفه على الجامعة وعلينا ما أطلق ألسنتنا بالحمد له والثناء عليه .

طه حسين »

وأنفق الصديقان ساعات حلوة في الإسكندرية ، يهيمان على ساحل البحر ، وبأخذان في ألوان من الحديث فيها قليل من جدّ وكثير من العبث . واستكشف الفتى في صديقه خصلة لم يكن يعرفها منه ، وهى الإسراف على نفسه فى الأكل . فلم يكن يلتقى شيئاً يؤكل مما يحمله الباعة المتجولون إلا اشترى منه وأقبل عليه بزرده ازدراداً ، والغريب أنه أقبل على عشائه كأنه لم يأكل قبله شيئاً . ثم قضيا ليلتهما فى فندق تيمّن الصديق باسمه ، وقال لصاحبه : فأل حسن ! ستسافر إلى فرنسا لأن الفندق يسمى باسمها ، وينسب إليها . . .

ولم يبلغ الفتیان مدينة القاهرة ، حتى قال الصديق لصاحبه : إذا أدى إليك علوى باشا جائزته فاذا كر أنك مدين لى بستة جنيهات ، واحذر أن تبطل في أداائها إلى !

وكان قبض هذه الجائزة أثقل على الفتى من لقائه للأمير . فقد دُعِيَ إلى العشاء على مائدة علوى باشا ، مع أساتذته الذين امتحنوه . فجلس إلى المائدة ، ولكنه لم يصب من الألوان التي قدمت إليه شيئاً . كان شديد الحياء بطبعه ، وكانت المهابة تملك نفسه وتفسد عليه أمره كله . وكان لا يدرى ماذا يصنع بشخصه كله وقد وضعت أمامه أدوات المائدة فلم يكذب بمسها حتى أدركه منها ذعر شديد . . ماذا يصنع بالملقعة ، وماذا يصنع بالشوكة والسكين ! وكيف يتصرف بها . . . أليس الخير كل الخير في أن يلبث في مكانه هادئاً ساكناً لا يعرض نفسه لسخرية أو إشفاق ؟ . .

وظل في مكانه هادئاً ساكناً أيضاً لا يحرك يداً ولا لساناً .

وأقبل الأساتذة على طعامهم غير هيايين ولا وجلين ولا مترددين ولا حافلين بهذا الفتى الجالس بينهم كأنه التمثال ! قد انعطف أعلاه على أسفله . وهو مفرق في السكون والصمت لا يصنع شيئاً ولا يقول شيئاً . كان يستحي أن يحرك يده أو لسانه . وكان يستخذي من سكونه وصمته . وكان يتعجل مر الساعات ويتمنى أن تعود إليه حرите حين يردّ إلى غلامه ذاك الأسود الذي كان ينتظره غير بعيد . وكان علوى باشا وحده يلحّ عليه في أن يصيب من هذا اللون أو ذاك ، فلما استبأس منه ، قال في صوت حزين : أرجو أن يكون خادمك قد أعد لك ما يعشيك .

وقد فرغ القوم من طعامهم ، وأخذوا في أطراف من الحديث ، وشاركهم الفتى في بعضها ، ثم قام الباشا فأدار مفتاحاً في خزانة وجذب إليه درجاً من أدراجها ثم أعاد إغلاقها . ثم أقبل على الفتى فقدس في يده ورقة تصبب جبينه لها عرفاً . فلما أصبح عرف أنها كانت الشيك الذي دُعِيَ إلى العشاء ليتسلمه .

وأدّى الفتى دينه ، وأجاز خدم الجامعة كما أجازته علوى باشا ، وبقى له جنينيات تسعة سطا عليها أخوه فلم يبق له منها شيئاً ! !

على أن هذا كله لم يُنسِ الفتى حقّه عند الجامعة ، فهي قد علقت سفره على أن يفوز بالدرجة . وقد فاز بها ، فيجب أن تبرّ الجامعة بوعدها ، والفتى يكتب إليها هذا الكتاب :

« صاحب العطفة رئيس الجامعة المصرية

قد عرضتُ منذ حين على الجامعة المصرية أن توفدني إلى أوربا لأدرس فيها التاريخ والفلسفة . فكلفتني تعلم الفرنسية . ثم قبلت الطلب وعلقت تنفيذه بنيل شهادة العالمية . وإذ كنت قد فرغت من هذا كله بحمد الله فلم يبق إلا أن يحدد مجلس الإدارة موعد السفر وتكتب الجامعة بذلك لأعدّ له عدّته .

لذلك رفعت إلى عطفكم هذا الطلب راجياً أن تفضلوا بقبوله ولكم الشكر أفندم .

طه حسين »

١٨ مايو ١٩١٤

وبدأت الجامعة البرّ بوعدها ، فقررت ضمّ الفتى إلى بعثتها بباريس وأرسلت إليه هذا الكتاب :

« حضرة المحترم الدكتور

اطلع مجلس الإدارة على العريضة المقدمة من حضرتكم بتاريخ ١٨ مايو سنة ١٩١٤ فقررانضمامكم إلى إرسالية الجامعة بباريس لدراسة التاريخ . وأن يكون سفركم في الأسبوع الأول من شهر أغسطس القادم . وهذا إخطار لحضرتكم بذلك . واقبلوا وافر تحياتي .

رئيس الجامعة المصرية »

وكذلك تحقّق هذا الحلم السعيد الذي داعب نفس الفتى وداعبته نفسه أعواماً ،

وأصبح صاحبنا عضواً في بعثة الجامعة ، وتقرر أن يعبر البحر على الباخرة لوكرس في الثامن من شهر أغسطس ، وسافر الفتى إلى أقصى الصعيد حيث كانت تقيم أسرته ليودع أبويه ، فأقام في أسرته أسابيع كانت تثير في نفسه كثيراً من الشجون . فقد كان يرى أباه مبهجاً أشدّ الابتهاج بسفر ابنه إلى أوروبا بعد أن ابتهج أشدّ الابتهاج كذلك بفوز ابنه بدرجة الجامعة .

كان يتحدث بذلك إلى أهله ، وكان يتحدث به إلى الناس ، وكان كثيراً ما يقول لأولئك وهؤلاء : لله في خلقه شئون ! هذا أضعف بني وأخفهم على حملاً وأقلهم تفقة . قد أتيج له ما لم يتخ لإخوته الأقوياء المبرزين الذين كلّفوني من النفقة ما أطيق وما لا أطيق ، لم تتحدث الصحف عن واحد منهم ، ولم يقابل الخديو واحداً منهم ، ولم يخطر لي ولا لواحد منهم أنه قد يسافر إلى أوروبا كما سافر إليها أبناء الأغنياء . وكان قصارى ما تمنيت لابني هذا أن يجلس إلى عمودى الأهرام ليلقى الدروس على بعض طلابه . فإذا هو مسافر إلى باريس تلك التي نسمع من أحاديثها الأعاجيب !

وكانت أم الفتى راضية عما أتيج لابنها من النجاح ، ولكن رضاها كان مرّاً قليلاً . كانت تفكر في حال ابنها وفيما سيعرض له من الخطوب في بلاد الغرب وفيما سينكف من الجهد ويحتمل من المشقة ، وكانت كلما رأت ابتهاجه وابتهاج أبيه ثقل عليها هذا التفكير ، وربما استخفت بدموعها حتى لا تنغص على الأسرة هذا الابتهاج .

وأقبل الفتى ذات يوم إلى القاهرة يتياً للسفر البعيد ، ولكنه لا يكاد يأخذ في ذلك حتى ينقلب فرحه حزناً وسروره ألماً ولوعة . فقد أعلنت الحرب ، واستردت الجامعة طلابها من أوروبا ، ووقفت إرسال البعثة الجديدة واضطر الفتى إلى أن ينتظر .. ماذا ينتظر ؟ وإلى متى يكون هذا الانتظار : أيقصر أم يطول ؟ ..

الفصل العاشر

أساذ هامعئ بممسة حمبرات !

... وكانت تلك الأيام الطوال الثقال التي قضاها صاحبنا في القاهرة مروّعاً ملتاعاً بعد أن حالت خطوب الحرب بينه وبين ما كان يريد . فقد أسلمته هذه الصدمة القاسية إلى ممّ متصل ذاد عنه النوم ، فلم يكن يذوقه إلا حين يسفر الصبح ويستيقظ الطير ، وقد بلغ منه الجهد غايته ، وانتهى به العناء إلى أقصاه ، بعد ليل ممّهد وفكر مشرّد ونفس قلقه عرفت كيف تنسلّ من ماضيها الثقيل ، ووقفت أمام المستقبل المظلم حائرة لا تعرف كيف تنفذ منه إلى ما كعب لها فيه من سعادة أوشقاء .

في تلك الأيام كان الفتى فارغ النفس والقلب ، لبست أمامه غاية يسعى إليها ، ولا أربّ يطمع فيه . يصبح فلا يجد أمامه عملاً ينفق فيه بياض النهار ، ويمسى وقد ثقلت عليه الراحة . فلا يحسنّ من التعب والجهد ما يغريه بالنوم أو يغري به النوم ، يرى نفسه بعد أن جاوز العشرين لا يزال عيالا على أبيه الذي أثقلته نفقة البتين ، وعلى أخيه الذي جعل يعمل في الجمعية الخيرية الإسلامية منتظراً ذلك المنصب الذي جدّ وكذّ في سبيله ، وهو منصب القضاء الشرعى . في تلك الأيام أبفض صاحبنا نفسه ، وملّ حياته ، وزاده درسه لأنبي العلاء بغضاً لنفسه ، وتبرماً بحياته وإغراقاً في التشاؤم المظلم الذي لا قرار له . ورأى نفسه ذات يوم وقد انتهى به التشاؤم والضيق إلى حيث ندم على ما قرط في جنب الأزهر وشيوخه حتى حيل بينه

وبين درجة العالمية تلك التي كان يسخر منها أشدّ السخر ، ويزهد فيها أعظم الزهد ، بعد أن صرفت عنه فلم يحاول أن يستأنف السعى إليها .

وما أكثر ما كان يردّد في نفسه ذلك الحديث المرّ : « لو قد ظفرت بتلك الدرجة لكان لي عمل أغدو إليه ، ومورد أعيش منه ، ولما أثقلت بهذه الحياة البغيضة على قوم من حقّهم أن توضع عنهم الأثقال ، وتخفّ عليهم الأعباء » .

والغريب أنه كان يخترع لنفسه هذه الحياة المرّة البغيضة اختراعاً . فهو لم يشعر من أبيه ولا من أخيه ببعض ما كان يجد في نفسه من الحزن والضيق واليأس ، ولم يلاحظ أن أحدهما ضاق من عنايته به أوعايته له . وإنما جرت الصلة بينه وبين أسرته مطردة كما كانت تجري من قبل لم يتغير فيها شيء ، ولم ينبّ به مكانه في بيته ذاك ولا مكانه في القاهرة بين صديقه ، وإنما هو الذي كان يضيق باطراد الصلة واستداد حياته على هذا النحو بدون أن يتغير قليلاً أو كثيراً .

فيمّ إذن كدّ وشقيّ وتكلّف ما تكلف من الدرس والامتحان ، وظفر بما ظفر به من النجاح ؟ وفيمّ كثر الحديث عنه والاحتفاء به ؟ وفيمّ كانت هذه الأحلام الحلوة والآمال العراض ؟ أكان هذا وسيلة إلى هذه الحياة الفارغة التي يحياها وإلى أن يصبح آخر الأمر كلاً على أسرته أينما توجهه لا يأت بخير ؟

بهذا كله كان يتاجى نفسه إن أتاحت له الخلوة في النهار ، وحين تفرض عليه الخلوة إليها في الليل . وهو على ذلك لا يُظهر لأحد شيئاً من ضيقه وتبرّعه ويأسه ، وإنما يلقي الناس كما تعود أن يلقاها باسمًا لهم وللحياة ، آخذاً معهم في أطراف من الحديث مختلفة ، كأنه لم يكن يائساً ولا شقيّاً ولا محزوناً .

ثم ينظر له ذات يوم خاطر يُخرجه من الملل واليأس ، ويدفعه لا إلى الأمل بل إلى محاولة الأمل . فما الذي يمنعه أن يعلم في الجامعة بعد أن تعلّم فيها ؟ وأن يختلف إليها أستاذاً بعد أن اختلف إليها طالباً ؟ وأن يكون شأنه معها كشأنه مع الأزهر

لوظفريد رجنه ، وهو لا يريد من الجامعة أجراً ، فما ينبغي أن يكون عيالا عليها . وليست هي بالغنية ولا بال محتاجة إليه ، وإنما يريد أن يشغل نفسه عن نفسه ، وأن يشعر الناس أنه يستطيع أن ينفع نفسه وينفعهم ، وأن وجوده في هذه الدنيا ليس عبثاً ولا لغواً . وهو يكتب إلى رئيس الجامعة هذا الكتاب :

« صاحب العطفوة رئيس الجامعة المصرية

« كانت هذه الحرب الحاضرة مؤخراً لى عن السفر إلى باريس والالتحاق بطلبة إرسالية الجامعة ، كما قرّر مجلس الإدارة ، وإذ كنت خريج الجامعة ، وقد استفدت منها وتخصصت لها ، وأنا مضطّر إلى أن أبقي بمصر ريثما تنتهى هذه الحرب ، فقد أردت أن أمضى هذه السنة في تدريس تاريخ الآداب العربية في الجامعة بغير أجر . وأعتقد أنى قادر بمعونة الله وقديم فضل الجامعة على أن أفيد الطلاب ونفسي بهذا الدرس فائدة حسنة ، وأبعث في الآداب وتاريخها شيئاً من الحياة غير قليل ، فإذا راق هذا الاقتراح لمجلس الإدارة فأنا أرجو أن يتفضل فيقررنى (كذا) مدرساً لهذه المادة في الجامعة ريثما تنتهى الحرب ، وله الشكر الجميل » .

وعرض هذا الكتاب المفروور على مجلس الجامعة في السادس عشر من سبتمبر من ذلك العام ، فقُبِلَ الطلب ورفض ما عرض صاحبه من المجانية ، وكلف علوى باشا ، رحمه الله ، شيئين : أحدهما أن يشكر للفتى تبرّعه بهذا الدرس . والثانى أن يقدر له مكافأة تلائم حاله وتلائم طاقة الجامعة .

وأخذ علوى باشا يسام الفتى في هذه المكافأة ، فعرض عليه أول ما عرض أن تكون مكافأته بمقدار ما يكون من إقبال الطلاب على درسه ، وأن تفرض الجامعة على الذين يختلفون إلى هذا الدرس رسماً يسيراً ، ثم يجمع ما يحصل من هذه الرسوم ويدفع إلى الأستاذ الفتى . وزعم علوى باشا لصاحبنا أن بعض الجامعات الألمانية تسير هذه السيرة مع الأساتذة المبتدئين ، ولكن صاحبنا اعتذر من قبول هذا

العرض لأنه يجعله مديناً لطلابه ديناً مباشراً بما يرزق من مرتب آخر الشهر .

قال علوى باشا : وإذن فستعطيك الجامعة مكافأة قدرها خمسة جنيهات في كل شهر ، وهي أكثر مما كان الأزهر يعطيك لو جلست فيه مجلس الأستاذ .

واستخذى الفتى من هذا الحديث كله فلم يرجع على علوى باشا جواباً ، وإنما انصرف عنه محزون القلب كئيب النفس كاسف البال ، راضياً مع ذلك شيئاً من رضا ، فقد أصبح له عمل ينفق فيه وقته وجهده . وليس بقليل أن يقال عنه إنه أستاذ في الجامعة . وأقبل على الأدب وتاريخه يعدّ دروسه فيها . وقرر أن يختار للدرس في عامه الأول تاريخ الأدب الأندلسي . وما هي إلا أن غرق في « نفع الطيب » وما إليه من كتب الأدب العربي في الأندلس ، ففسى نفسه ونسى الناس ، ولكنه لم ينسَ البعثة إلى باريس ، ولم ينسَ الحرب التي تحول بينه وبين باريس . وكيف السبيل إلى نسيان الحرب وأنها المرّوعة تصبّحه وتمسيه في كل يوم ؟

وإنه لغارق في الأدب الأندلسي يقرؤه مع صديقه ذاك الذي قرأ معه أبا العلاء ، وقرؤه مع خادمه كلما غاب عنه صديقه ذاك ، وإذا الجامعة تدعوه فيذهب إليها عجللاً وجلاً ذات ضحى ، وهناك يلتقى علوى باشا - رحمه الله - فيستقبله باسمًا له رفيقاً به ، وينبئه بأنه مسافر بعد أيام إلى فرنسا . فقد انجلت الغمرة بعض الانجلاء ، وانهمز الألمان أمام باريس ، وسعى ممثلو فرنسا في مصر عند الحكومة وعند الجامعة لتعيدا طلابهما إلى الجامعات الفرنسية .

ومنذ ذلك اليوم أقبل الفتى على تهيئة نفسه للسفر مستأنفاً حياته تلك التي كانت تملؤها الأحلام العذاب ، والآمال العراض . وبقبل اليوم الموعود فيسافر الفتى من القاهرة ومعه أخ له يرافقه في سفره ، ويحيما معه في فرنسا ، ليتّم درسه هناك ، ويعين أخاه على الحياة الشاقة في تلك البلاد الغريبة النائية . وقد أبت الجامعة أن

تحتمل من نفقة هذا الأخ قليلاً أو كثيراً . فاضطر الأخوان إلى أن يعيشا بمزبوح واحد على ما في ذلك من ضيق وشدة . وقبلت الأسرة أن تعينهما بشيء من مال يسيرين حين وحين ، وعلى غير نظام مطرد .

وفي الرابع عشر من شهر نوفمبر أبحر الفتى من الإسكندرية ، ومعه أخوه وطالبان من طلاب البعثة الجامعية كان لهما في حياته في فرنسا شأن أى شأن .

فأما أحدهما فكان قد نيف على الأربعين ، وكان غريب الأطوار حقاً .

كان قد ظفر بالشهادة الثانوية ، وعمل في ديوان من دواوين الحكومة ، وانتسب إلى مدرسة الحقوق الفرنسية . فكان يغدو على مكتبه ويروح إلى مدرسة الحقوق حتى ظفر بدرجة الليسانس الفرنسية من جامعة باريس ، وكان مرتبه ضئيلاً ، ولكنه كان يحسن التدبير والاقتصاد ، فيؤدى رسوم المدرسة ، ويسافر إلى باريس في كل عام لأداء الامتحان ، حتى إذا أتم الدرس طمع في أكثر من الدرجة التي ظفر بها . واتصل بعلوى باشا فقص عليه قصته ، وتأثر الباشا بهذه القصة ، وقدر أن هذا الفتى يجب أن يكون حريصاً على العلم محباً له مشغوقاً به ، مادام قد تكلف في طلبه كل هذا العناء ، وقتر على نفسه في الرزق كل هذا التقتير حتى ظفر بهذه الدرجة التي أتاحت له . وجعله علوى باشا عضواً في البعثة الجامعية ليمضي في درس الحقوق حتى ظفر بدرجة الدكتوراه . لم يحفل بتقدم سنه ، ولم يفرض عليه امتحاناً أو شيئاً يشبه الامتحان .

وأما الآخر فكان قد نيف على الثلاثين ، وكان قد تخرج في دار العلوم ، وتقدم لمسابقة الجامعة فظفر فيها ، وأرسل إلى فرنسا للتخصص في الأدب العربي . فأقام فيها سنتين متصلتين ، ثم رُدَّ إلى مصر حين أعلنت الحرب ، ثم أعيد إلى فرنسا بعد أن انجلت عنها الغمرة الأولى . وكذلك لم يشعر الفتى وأخوه بشيء من الوحشة في هذا السفر بفضل هذين الرفيقين . وكان سفرهما غير قاصد ، فيه كثير من جهد ،

وفيه شيء من خطر أيضاً .

فقد اختبرت لسفر البعثة سفينة فرنسية فقيرة حقيرة رخيصة . وكان اختيارها لوناً من الاقتصاد . وكان اسمها « أصهبان » ، وكانت على بؤسها وفقرها مرحلة تحب الرقص في البحر ، وتحسن اللعب على أمواجه ولا تحفل بما يلقي ركابها من عقاب حبها للرقص واللعب . وكانت تؤثر المهل على العجل ، وتفضل الأناة على السرعة ، وكانت السفن تعبر البحرين الإسكندرية ومارسيليّا في أربعة أيام . فأما أصهبان فكانت تحب البحر وتؤثر أن تعبره في ثمانية أيام لا في أربعة ، وصعد الفتى إلى « أصهبان » بتعثر في جيبه وقبطانه . ولم يكده يبلغ غرفته في الدرجة الثانية ويسمع الجرس المؤذن بقرب إقلاع السفينة حتى خرج من جيبه وقبطانه ، وتخطف من عمامته ، ودخل في ذلك الزيّ الأوربي ... وشغله دخوله في ذلك الزيّ عن إقلاع السفينة وأندفاعها في طريقها هادئة أول الأمر ، مضطربة بعد ذلك أشد الاضطراب ، ورأى الفتى نفسه حين أقبل المساء وقد فارق مصر ، ودفع إلى مغامرته تلك التي عرف أولها ولكنه لم يعرف ما يكون بعد أولها هذا من الأحداث والخطوب .

والحق أنه لم يفكر في الأحداث ولا في الخطوب ، ولا في أول المغامرة ولا آخرها ، وإنما شغل بزيّه الجديد ساعة وبعض ساعة ، ثم شغل باضطراب السفينة بعد ذلك ، فلم يفرغ منه إلا حين أتمت السفينة رحلتها وانتهت به إلى مارسيليّا ذات مساء بعد ثمانية أيام طوال حافلة بالفزع والروع والضيق .

* * *

وقد لزم الفتى غرفته تلك منذ دخل السفينة إلى أن خرج منها . لم يذهب إلى غرفة المائدة ، وكيف يذهب إليها وهو لا يحسن الحركة في هذه السفينة التي لا تستقر ، ولا يعرف الجلوس إلى موائد الطعام ، ولا يحسن استعمال تلك الأدوات التي يستعملها الناس حين يطعمون ، ولا يستطيع أن يأكل أمام المسافرين من الأوربيين

بيديه كليهما أو إحداهما ، كما كان يصنع في مصر ، فليس له بدّ إذن من أن يصيب طعامه في غرفته . وكان الرفاق قد وكلوا به خادماً من خدم السفينة يحمل إليه غداءه وعشاءه ، وقد أعدّ إعداداً حسناً ، ليصيب منهما حاجته . فكان الخادم يحمل إليه الطعام في موعده ، فيضعه بين يديه ثم ينصرف عنه ، ويغلق باب الغرفة من دونه ، ثم يعود إليه بعد حين ليحمل ما وضع بين يديه من أطباق . وكان كلما عاد لحمل هذه الأطباق قال الفتى في ضحكة حزينة جملةً بعينها لا يغيّر منها حرفاً حتى حفظها الفتى ولم ينسها : « ما أقلّ ما تصيب من الطعام ! » . وأفاق السّفَر ذات ليلة مذعورين ، فقد اضطربت السفينة اضطراباً عنيفاً مفاجئاً ، وكثرت فيها الجلبة ، ثم وقفت السفينة فجأة ، وجعلت الريح تعصف من حولها ، واشتدّ اصطخاب الموج ، وصوّت بعض النساء ، وعرف المسافرون أن عطفاً قد أصاب محرّك السفينة ، ولم يشك أحد في أن الخطر قريب .

وبينما كان السّفَر في ذعرهم وروعهم ، كان الرفيق الدرعى مقبلاً على ذقنه يعمل فيها الموسيقى ، حتى إذا فرغ من ذلك دخل في ثياب النهار كما تعود أن يدخل فيها قبل أن يخرج من غرفته في كل يوم ، ثم أقبل على الفتى متكلفاً ضحكاً يغالب به الرّوع . فلما رآه مستلقياً في سريره قال متضاحكاً : وإنك لتستقبل الآخرة على هذه الحال !

قال الفتى : وما تريد أن أصنع ؟

قال الدرعى : فإني كرهت أن أستقبل الموت في قميص ، فحلقت ذقني ، واتخذت زيتي لأغرق كريمة لا يضحك الناس مني .

ثم اندفع في ضحك يائس وأخذ يتغنى في شعر البردة كما يتغنى فيه بعض أصحاب الطرق :

أَمِنْ تَذَكُّرِ جِيرَانٍ بَدَى سَلَمٌ مَزَجَتْ دَمْعاً جَرَى مِنْ مَقْلَةٍ بِدَمٍ

وإنه لفي هذا العبث ، وإذا اضطراب الناس يهدأ . فقد عرفوا أن في السفينة من المهندسين والعمال من يستطيعون إصلاح ما أصاب محرّكها من عَطَب ، وأنها ستستأنف سيرها بعد ساعات . وما أسرع ما استحال الرُّوع إلى ضحك ولعب وابتهاج . .

وتستأنف السفينة سيرها وقد سكنت ، فهي لا تعصف ، وسكن الموج فهو لا يقصف ، ومضت السفينة في طريقها هادئة مستأنية ، كأنّ رشدها قد تاب إليها ، وكأنّها هي قد ثابت إليه . وتبلغ مارسيليا مساء ذلك اليوم ، فيهبط صاحبنا من السلم لا يتعثّر في جبهته وقفطانه ، ولكن نفسه هي التي كانت تتعثّر في هذه الحياة الجديدة التي يستقبلها ، ولا يعرف كيف يلقاها ، ولا كيف يحمل أعباءها ، ولا كيف ينفذ من مشكلاتها .

ويبلغ الرفاق مدينة مونبلييه التي أمرتهم الجامعة أن يطلبوا العلم فيها عامهم ذاك ، ولا يذهبوا إلى باريس حتى يؤذن لهم في الذهاب إليها ، وهم يبلغون تلك المدينة مع الليل ، وهم يجهلون من أمرها كل شيء . ولكن رفيقهم ذاك الذي نكّف على الأربعين وحلب الدهر أشطره كما كان يقول ، وجعل نفسه رئيساً لهم بحكم السنّ ، يقودهم إلى فندق فقير فقير كسفيتهم تلك التي عبرت بهم البحر ، فإذا استقروا في هذا الفندق وعبث بهم البرد أقبل الدرعى متضاحكاً وهو يقول للفتى :

أوتل مثل وجه الكلب لكن لخاطر سلطان اصبر شويه
وسلطان هذا هو اسم الرفيق سلطان الذي قادهم إلى الفندق ، ولكن ضروره
الشعر حذفت ألفه ليستقيم الوزن ، وما أكثر ما تحذف ضرورات الشعر من
الحروف ! . . .

الفصل الحادى عشر

الفتى فى فرنسا ..

واستقبل الفتى حياته فى مدينة مونبلييه سعيداً بها إلى أقصى ما تبلغ السعادة ، راضياً عنها كأحسن ما يكون الرضا . فقد حقق أملاً لم يكن يقدر أنه سيحققه فى يوم من الأيام .

وكان يكفيه أن يفكر فى صباه ذلك البائس الذى قضاه متردداً بين الأزهر وحوش عطا ، تشقى نفسه فى الأزهر ، ويشقى جسمه وتنسه فى حوش عطا ، حياة مادية ضيقة عسيرة كأقصى ما يكون الضيق والعسر ، وحياة عقلية مجدية فقيرة كأشد ما يكون الإجداب والفقر ، ونفس مضطربة بين عسر الحياة المادية وفقر الحياة المعنوية . ثم يوازن بين حياته تلك وبين الحياة الجليلة التى أخذ يحياها فى هذه المدينة الفرنسية ، لا يحس جوعاً ولا حرماناً ، يُحْمَلُ إليه فطوره إذا أصبح ناعماً ليناً لا خشونة فيه ولا غلظ . فإذا جاءت أوقات الطعام فى وسط النهار وفى آخره ، وجد فى اختلاف الألوان وتنوعها ما يذكره بطعامه ذاك المشابه حين كان يغمس خبزه فى عسله ذاك الأسود مصبوحاً وممسياً ، وحين كان يحب أن يتخفف من طعامه ذاك أحياناً ويخالف عن حلاوته البغيضة إلى شىء آخر ، فلا يجد إلا ذلك الطعام الغليظ الذى كان الأزهريون يعيشون عليه فى تلك الأيام . فإذا أحب أن يتفكه فلا منصرف له عن البليلة فى الصباح والتين الفارق فى الماء إذا كان المساء أو الضحى . وأين ذلك الطعام الغليظ من هذه الألوان المترفة

الرفيقة التي كانت تعرض عليه في غذائه وعشائه في غير تقدير ولا تضيق ، وفي كثير من إلحاح الخدم وأصحاب الفندق عليه في أن يصيب منها أكثر مما أصاب . ويذهب إلى الجامعة فيسمع فيها ما شاء الله أن يسمع من دروس الأدب والتاريخ واللغة الفرنسية ، لا يسمع درساً إلا أحس أنه قد علم ما لم يكن يعلم ، وأضاف إلى علمه القديم علماً جديداً ، وهو على قلة حظه من إحسان اللغة الفرنسية لم يكن يجد كثيراً من المشقة ، ولا يبذل كثيراً من الجهد ، ليفهم ما كان الأساتذة يلقون من الدروس فهماً يغنيه ويرضيه . كان الفتى يوازن بين حياته هذه الجديدة وحياته تلك القديمة ، ويقيس ما بينهما من الفرق العظيم ، فيرى نفسه أسعد الناس وأعظمهم حظاً من النجح والتوفيق ، وهو مع ذلك لم يكن ميسراً عليه في الرزق ، وإنما كان عليه أن يدبر مرتبه ذاك الذي لم يكن يتجاوز اثني عشر جنياً ليفتق منه على نفسه وعلى أخيه . وقد نهياً له ما أراد من ذلك في غير تكلف ولا عناء . كانت الحياة الفرنسية في تلك الأيام هيئة ميسرة ، تتيح لفتين أجنبيين مثله ومثل أخيه أن يعيشا بهذا المرتب الضئيل عيشة راضية حين تقاس إلى ما كانا بليقيان في مصر من قسوة الحياة وشظفها .

ثم لم يلبث الفتى أن فكر في أنه لم يعبر البحر إلى فرنسا ليرتد بين الفندق والجامعة ، وإنما أقبل إلى هذا البلد الغريب ليدرس ويحصل ويعوز الامتحان ، ويظفر بالدرجات الجامعية التي لم يظفر بها أحد قبله من مواطنيه . فلم يكن له بدّ من أن يظفر بدرجة الليسانس ، ولم يكن إلى الظفر بتلك الدرجة سبيل في تلك الأيام إذا لم يحسن الطالب لغتين لم يكن من إحسانهما بدّ . إحداهما لغة الدرس وهي اللغة الفرنسية التي كان الفتى قد أخذ منها بحظ يسير ، والأخرى لغة قديمة كان الفتى يسمع عنها ولا يحققها ولا يعرف إلى العلم بها سيلاً ، وهي اللغة اللاتينية .

وقد أخذ الفتى يتبها لإتقان الفرنسية من جهة ، وتعلم اللاتينية من جهة أخرى . فالتمس لنفسه معلماً خاصاً يُعينه من ذلك على ما كان يريد . وقد جعل رفاقه يبحثون له عن المعلم الذى يلائمه حتى قيل لهم إن صاحبكم مكفوف ، وليس له بد من أن يتعلم كتابة المكفوفين وقراءتهم ، ليستطيع أن يعتمد على نفسه فى تحصيل ما يريد أن يحصل من العلم .

ثم قيل لهم إن فى تلك المدرسة من مدارس المكفوفين أستاذاً ضريراً قد عين صاحبكم على حاجته . فسعوا إلى هذا الأستاذ ، وقدموا إليه صاحبهم ، وأعلن الأستاذ إليهم أنه زعيم بأن يعلم رفيقهم الكتابة والقراءة الفرنسية واللاتينية جميعاً ، ولم يطلب على هذا إلا أجراً ضئيلاً فى نفسه ، ولكنه كان ثقيلاً على هذين الأخوين اللذين كانا يعيشان بمرتب شخص واحد .

وقد قيل الفتى مع ذلك أن يشق على نفسه وعلى أخيه ، وأن يؤدي إلى الأستاذ أجره الذى طلبه . وكتب إلى الجامعة يستعینها فلم تبخل عليه بالعون ، وقامت عنه بأداء هذا الأجر .

وأقبل الفتى على الكتابة البارزة يتعلمها ، فلم يلبث أن أحسنها ، ولكنه عندما حاول أن يتفهم بها فى درسه لم يجد إلى الانتفاع بها سبيلاً . فلم تكن الكتب التى كان يحتاج إلى قراءتها قد طبعت على هذه الطريقة الخاصة . وكان ربما أتبع له الكتاب المطبوع على هذه الطريقة ، فلا يكاد يأخذ فى قراءته حتى يضيق بهذه القراءة أشد الضيق ، وينفر منها أعظم النفور . فهو قد تعود أن يأخذ العلم بأذنيه لا بأبصاره ، وهو من أجل ذلك يجد المشقة كل المشقة فى تتبع هذه النقط البارزة حتى يؤلف منها الكلمة ، ثم يؤلف من الكلمة وأمثالها جملة ، ثم يؤلف من هذه الجملة وأمثالها كلاماً يمكن أن يعمل فيه عقله وفهمه وبصيرته ، وإذا هو يجد فى ذلك عسراً أى عسر ، ويسأم ذلك أشد السأم وأقساه ، ويرى أنه يستطيع

أن يحصل من طريق أذنيه في اللحظات القصيرة ما يحتاج إلى الوقت الطويل والمثلث الثقيل ليحصله من طريق أصابعه . وهو يعدل عن الكتابة البارزة وعن القراءة بالأصابع إلى طريقته التي ألفها إلا في درس اللاتينية . فقد كان حريصاً على أن يتعلم هذه اللغة في أناة ومهل ، وكانت هذه الطريقة في الكتابة والقراءة تواتيه وتلائم ابتداءه درس هذه اللغة وحاجته إلى الريث والأناة .

على أنه لم يكد يتقدم في درس اللاتينية قليلاً حتى سئم القراءة بأصابعه ، وآثر الاستماع على تلمس الحروف ، وأحس الحاجة إلى قارئ يقرأ عليه ما يريد في اللاتينية والفرنسية جميعاً . ولم يستغن عن أستاذه ذلك الذي كان يعلمه هاتين اللغتين . واستحى أن يطلب إلى الجامعة عوناً جديداً . فقرّر على نفسه أشد التقدير وأقساه ، وعاش عيشة فيها شيء من غلظة وخشونة ، ولكنها كانت على كل حال خيراً من حياته التي ألفها في مصر .

على أن الأيام أثبت إلا أن تشقّ عليه وترهقه من أمره عسراً . فقد كان يعيش مع أخيه عيشة راضية على ما فيها من قسوة ومشقة . . وكانا يدبران أمرهما تديباً ملائماً لطاقتيهما المالية ، ولكنها لم يلبثا أن اختلفا واشتد بينهما الاختلاف ، حتى أصبحت حياتهما خصاماً متصلاً وشقاء ملحاً ، وحتى اضطر إلى أن يفترقا . . يسكن كل واحد منهما في منزل غير الذي يسكنه أخوه ، ويلتقيان بين حين وحين . وقد اضطرهما ذلك إلى المبالغة في التقدير على أنفسهما . فليست النفقات التي يقتضيها اقتراقهما في المسكن ، كالنفقات التي كانا يحتملها حين كانا يسكنان في غرفة واحدة ، ويختلفان إلى مائدة واحدة .

وكذلك اشتدت قسوة الحياة على هذين الأخوين الغريبيين ، ولكنها لم تنل من صبرهما ، ولم تصرفهما عن جدّهما في الدرس والتحصيل . ولم تكن حياة

الفتى على ذلك النحو مبغضة إليه ، ولا ثقيلة عليه من جميع وجوهها ، وإنما كانت مزاجاً من الجد الصارم والهزل الباسم . يلتقيان أحياناً فيحيا الفتى حياة ليست حلوة ولا مرة ، ولكنها تُمرّ في أول النهار ، وتحلو في آخره حين كان الفتى يلقى رفاقه ويسمع لأحاديثهم ، ويقضى بينهم فيما كان يعرض لهم من المشكلات ، وما أكثر ما كان يعرض لهم من المشكلات ، ومن مشكلات الحب والغرام خاصة ١ .

وكيف تريد فتية من المصريين على أن يعيشوا في فرنسا ويختلفوا إلى القهوات والأندية وبعض ما يقام من الحفلات بدون أن يداعبوا الحب أو يداعبهم الحب ، وبدون أن تقسو عليهم دعابة الحب بين حين وحين ؟ ومن ذا الذى يستطيع أن يمنع صديقين من أن تروقهما فتاة واحدة ، وإذا هما يلتزمان إلى لقاءها الوسيلة . فإذا أُتيح لهما هذا اللقاء ابتغيا عندها مواقع الرضا ، ثم لا يلبث أن يكون بينهما التنافس ، ثم الخصومة ، ثم التلاحى ، ثم الفرقة . أيهما ظفر عند صاحبتها بالرضا فهو عدو لصاحبه الذى أخلفه الظن ، وكذبه الأمل ، ولم يقع من نفس الحسنة ما كان يرجو من موقع الرضا والارتياح . ولا تلبث هذه الخصومة بين الرفيقين أن تتجاوز الحب إلى غيره من ألوان الحياة التى كانا يتعاونان عليها ويشتركان فيها . وإذا صاحبتا يصبح قاضياً بين رفاقه في شؤون الحب ، وليس له أرب فيهما ولا سبيل إليه . وأتى له بشيء من ذلك وهو المكفوف الذى لا يحسن شيئاً حتى يعينه عليه معين ، وهو لا يرى وجوه الحسان ، ولا يعرف كيف يتحدث إليهن ، أو كيف ينتفى إلى رضاهن الوسائل . فهو يغدو على الجامعة مصباحاً ، فإذا راح إلى منزله آخر النهار لم يبرحه حتى يسفر له صبح الغد . والرفاق يُلْمُون به في آخر النهار وأول الليل ، فيختصمون بين يديه ويتخذونه حكماً بينهم ، وهو يصلح بين المختصمين مرة ويقضى لبعضهم على بعض مرة .

ولكن الليل لا يكاد يتقدّم حتى يتفرّق عنه رفاقه جميعاً ، وإذا هو يخلو إلى نفسه هذه الخلوة المرة التي لا يجد عليها معيماً . قد جلس وحده في غرفته تداعب نفسه الخواطر المختلفة الكثيرة . فيها ما يسرّ ، وفيها ما يسوء . فيها ما يحيى الأمل ، وفيها ما يملأ القلب يأساً وقنوطاً .

وما يزال القتي جالساً في مجلسه ذاك من غرفته تعبث به خواطره هذه المختلفة لا يسأل عنه سائل ولا يلمّ به مُلِمّ ، وإنّما هي الوحدة المطلقة القاسية التي كانت تذكره وحدته في غرفته في حوش عطا ، حين لم يكن يؤنسه إلا صوت الصمت وما كان يتردّد فيه أحياناً من أزيز بعض الحشرات .

وربما أسرفت عليه القسوة حتى تنتهى به إلى أقصاها فيمتنع عليه النوم ، ويبقى الأرق إلا أن يكون له حليفاً . وإنه لى ذلك وإذا بابه بطرق ، وقد كاد الليل يبلغ ثلثيه . فإذا أذن للطارق بالدخول ففتح الباب ، وأقبل عليه أحد رفاقه وقد أخذ من عبث الشباب بأعظم حظ ممكن ، وهو لا يريد أن يأوى إلى سريره حتى يتحدث ببعض عبثه إلى صاحبه . فإذا فرغ من حديثه وانصرف ترك صاحبنا وقد انتهى به الحزن والضيق إلى غايتهما ، وإذا هو يقضى ليلة بيضاء لا يذوق فيها للنوم طعماً . فإذا أصبح غدا على حياة فاترة لا خير فيها لعقله ولا لجسمه .

وهو على ذلك وعلى ضيق ذات يده ، وعلى المشقة الشاقة التي كان يلقاها في الاختلاف إلى الجامعة والانتفاع بما كان يسمع من الدروس ، راضٍ عن حياته كل الرضا ، مطمئن إليها أشد الاطمئنان لا يتمنى إلا أن يمضى فيها حتى ينتهى إلى ما قدر له من غاية ، وهو واثق بأنه سيبلغ من هذه الحياة ما يريد ، سيحسن الفرنسية ، بل هو قد أخذ يحسنها ويطلق بها لسانه في غير مشقة ، وسيتعلم اللاتينية ، وسيتميّز للامتحان . ومن يدري لعله أن يكون أول طالب مصرى يظفر في يوم من الأيام بدرجة الليسانس في الآداب .

وإنه لفي هذه الحياة الحلوة المرة القاسية اللينة التي يحبها أحياناً كأشد ما يكون الحب ، ويضيق بها أحياناً أخرى كأشد ما يكون الضيق ، وإذا الحياة تبسم له فجأة في يوم من أيام الربيع ابتسامة تغيّر حياته كلها تغييراً .

وإذا هو لا يعرف الوحدة ولا يجد الوحشة حين يخلو إلى نفسه إذا أظلم الليل ، وكيف تجدد الوحدة أو الوحشة إلى نفسه سيلاً ، وكيف تبلغه تلك الخواطر التي كانت تؤذيه وتضنيه وتورق ليله ، وفي نفسه صوت عذب رفيق يشيع فيه البرّ والحنان ، ويقرأ عليه هذا الأثر أو ذاك من روائع الأدب الفرنسي القديم ؟

يرحم الله أبا العلاء ، لقد ملأ نفس الفتى ضيقاً بالحياة وبغضاً لها ، وأبأسه من الخير ، وألّقى في رُوعه أن الحياة جهد كلها ومشقة كلها ، وعناء كلها . وإذا هذا الصوت يذود عن نفس الفتى كل ما ألّقى فيها أبو العلاء من ظلمة التشاؤم واليأس والقنوط ، كأنه تلك الشمس التي أقبلت في ذلك اليوم من أيام الربيع ، فجعلت عن المدينة ما كان قد أطبق عليها من ذلك السحاب الذي كان بعضه يركب بعضاً ، والذي كان يقصف ويعصف حتى ملأ المدينة أو كاد يملؤها إشفاقاً وروعاً .

وإذا المدينة تصبح كلها إشراقاً ونوراً .

سمع الفتى ذلك الصوت يقرأ عليه شيئاً من شعر راسين ذات يوم . فأحس كأنه خلق خلقاً جديداً ، ومنذ تلك الساعة التي سمع فيها ذلك الصوت لم يعرف اليأس إلى نفسه سيلاً .

ولم يعرف الفتى أنه أحب الحياة قط كما أحبها في الثامن عشر من شهر مايو في ذلك العام .

ولم يعرف أنه أقبل على الدرس كما أقبل عليه منذ ذلك اليوم .

ولم يعرف أنه انتفع بالاختلاف إلى الجامعة والقراءة في الكتب كما جعل يستفح بهما منذ ذلك اليوم أيضاً . حتى حين انقطع عنه ذلك الصوت العذب البرّ الرقيق لمقدم الصيف .

فقد كان الصوت يصحبه دائماً ، لا يكاد يخلو إلى نفسه في ليل أو نهار إلا سمعه يقرأ عليه هذا الكتاب أو ذاك ، في تلك النبرات التي كانت تسبق إلى قلبه فتملؤه رضاءً وغبطة وسروراً .

وإنه لفي هذه السعادة المتصلة ، وإذا صاحبه الدرعى يقبل عليه ذات صباح مظلم الوجه والنفس والصوت ، فينبئه بأن كتاباً قد وصل إليه من الجامعة تنبئه فيه بأن طلاب البعثة جميعاً يجب أن يعودوا إلى مصر ، وأن يأخذوا إليها أول سفينة تتاح لهم بعد قراءة هذا الدعاء .

وقد سمع الفتى حديث صاحبه فأغرق في ذهول عميق ، ثم أفاق بعد وقت لم يدرك أقصر أم طال ، وإذا هو يرى آماله العذاب قد استحالت في أقصر لحظة إلى آمال كذاب ، ويرى حياته المشرقة الباسمة المحلوة قد أصبحت ظلمة عابسة مرة ممّصة . ولكنه على ذلك لم يستسلم لليأس ، وإنما أخذ يتعلّق بالوهم ، فيبرق إلى من كان يعرف من الصديق القادرين على أن يسعّوا له في الخير عند الجامعة أو عند السلطان . ويرق إلى القصر ، ويتنظر ما يعود به البرق عليه ، وإذا البرق لا يعود عليه إلا بالإلحاح في الدعاء أن يعود إلى مصر في غير إبطاء .

ويرى الفتى نفسه ذات يوم من شهر سبتمبر يسعى مع رفيقه الدرعى إلى السفينة ، وكلاهما محزون كاسف البال ، كأنه لا يسعى للعودة إلى الوطن ، وإنما يساق إلى الموت .

الفصل الثاني عشر

الصوت العذب ..

وكانت أيام السفينة الستة طويلاً ثقلاً قد ألقي عليها الحزن غشاء شاحباً بغيضاً . فلم يجد الصاحبان فيها للذة السفر وراحته طعماً ، وإنما كان ألمٌ يصحبهما ويمسهما ، وكانت خيبة الأمل حديثهما في النهار حين يلتقيان ، وحديث نفسيهما في الليل حين يفترقان . وما لهما لا يشقيان بهذه العودة المفاجئة ، وأحدهما قد أنفق في باريس أعواماً طويلاً ثم لم يحقق من آماله شيئاً ، وإنما هم ولم يفعل ، فتعلم الفرنسية واختلف إلى الدروس ، وأخذ يتبها لإعداد رسالته التي ينال بها درجة الدكتوراه ، وإذا الحرب تردّه عن ذلك رداً . فإذا عاد إلى فرنسا واستأنف ما كان فيه من استعداد للرسالة والامتحان ردّه الأزمة المالية التي أدركت الجامعة إلى وطنه خائباً فارغ اليدين لم يصنع شيئاً ولم يظفر بشيء .

ولو قد التمس لنفسه عملاً حين تخرج في دار العلوم ولم يتكلف ما تكلف من السفر والغربة ، لكان في ذلك الوقت معلماً في هذه المدرسة أو تلك من مدارس الدولة . ولكنه يرى نفسه ضائعاً لا يكاد يدنو من الغاية حتى يصد عنها صدأ . تصدّه الحرب مرة ، وتصدّه الأزمة المالية مرة أخرى ، وهو يعود إلى مصر ليعيش فيها فارغاً لا يدري ماذا يعمل ، ولا يعرف كيف يكسب القوت ؟

وأما الآخر فقد جدّ وكذّ واحتمل المشقة والعناء ، وداعب الأحلام والآمال ، حتى إذا أشرف على البعثة ولم يكن يقلد أنه سيشرّف عليها ردّه عنها إعلان الحرب ،

فعاش أشهراً عيالا على أبيه وأخيه وذاق مرارة الحياة التي لا تغنى عنه وعن غيره شيئاً . ثم أتاحت له البعثة فأقبل على عمله مغتبطاً سعيداً يكاد يخرج النشيط من إهابه . وقد حاول من أمور الدرس ما أتيح له فيه كثير من التوفيق ، حتى ظن أنه بالغ ما يريد ، ثم عرض له في أثناء إقامته في فرنسا ما أحيا في نفسه آمالاً لم تكن تخطر له ببال . فهو قد عرف أنه يستطيع أن يكون كغيره من الناس ، بل خيراً من كثير من الناس ، يحيا حياة فيها رضا وغبطة ، وفيها نعمة وبهجة . وفيها سكون إلى هذه الرحمة التي كان قد استنأس منها والتي كان أبو العلاء قد ألقى في رُوعه أنه لن ينوقها ما عاش . وإذا الأيام تدنيه منها أو تدنيها منه .

وإنه لفي حياته تلك الراضية الناعمة على ما كان فيها من خشونة وعسر ، وإذا الجامعة تدعوه إلى مصر ليعود إليها كما خرج منها ، كأنه لم يداعب الأمل إلا ليتجرع مرارة اليأس كأبغض ما تكون مذاقاً .

وهو قد عرف التبطل والفراغ في أشهره تلك التي قضها في مصر ، بعد أن أعلنت الحرب ، وهو يعود ليلقى التبطل والفراغ مرة أخرى في مصر .

أفّ لهما من رفيقين بغضين ! ولقد كان يقطع الأمد بين مونييه ومارسيليا أثناء ليلته تلك الثقيلة وليس في نفسه إلا شيء واحد ، هو هذا الصوت العذب الذي طالما قرأ عليه آيات الأدب الفرنسي ، وهو الآن يناجيه في حزن أليم . . . وإذن فلن نلتقي بعد أن ينقضى الصيف !

وقد صحبه هذا الصوت أيام السفينة يناجيه مناجاة اليأس مرة ، ومناجاة الأمل مرة أخرى ، يشفق عليه من الأحداث ، ويمنيه الانتصار والخروج منها ، ويتحدث إليه بأنها الغمرات ثم ينجلين . وبأن لكل أزمة غاية ، وبعد كل حرج فرجاً ، وهو مضطرب بين هذه الابتسامات المضيئة الخاطفة التي لا تكاد تعرض له حتى تنصرف عنه ، وهذا الحزن الجاثم المقيم الذي لا يفارقه إلا ريثما يعود إليه !

وتبلغ السفينة ثغر الإسكندرية ، وإذا الوطن زاهد في هذين الصاحبين البائسين ، لا يريد أن يلقاهما ولا أن يضمهما بين ذراعيه ، فقد كانت الحرب قائمة ، وكانت قيودها شديدة ثقالا . وكان أمر مصر إلى غير أهلها ، وكان أمر الثغور خاصة ضيقاً حرجاً ، قد فرضت عليه رقابة أى رقابة ، فلا تكاد السفينة تستقر في مرساها ، ولا يكاد الصاحبان يحاولان الهبوط بها ، حتى يردا عن ذلك رداً شديداً ، فلم يكن يكفى أن يصل المصرى إلى وطنه ليدخله ، وإنما كان يجب أن ينتظر ويطول انتظاره حتى يؤذن له بالدخول .

وقد انتظر الصاحبان حتى تستأذن السلطة في السماح لهما بترك السفينة والتزول إلى أرض الوطن ، وأبرقا إلى الجامعة وإلى من يعرفان من الصديق يتعجلان هذا الإذن . ولكن الأمور لم تكن تجري في يسر وإسماح ، وإذا هما يقيمان في السفينة يوماً ويوماً . وصنع الله لهما في هذين اليومين أن كانا فيهما مضطربين أشد الاضطراب ، يريدان أن تفتح لهما أبواب الوطن ، ويتمنيان في أعماق ضمائرهما أن تظل مغلقة ، وأن تعود بهما السفينة إلى مارسيليا . . .

ولكن ماذا يصنعان في مارسيليا ؟

وكيف يعيشان في فرنسا ؟

بل كيف يعيشان في السفينة نفسها في أثناء عودتهما إلى مارسيليا ؟ ومن لهما

بشمن هذه العودة ؟

ولكن أبواب الوطن تفتح لهما بعد لأى ، والوطن يتلقاهما كتيباً ، فيضيف إلى حزنهما حزناً وإلى شقائهما شقاء .

وقد أقام صاحبنا في القاهرة قريباً من ثلاثة أشهر لا يعرف أنه شقى في حياته كلها كما شقى فيها ، ولا أنه سعد في حياته كلها كما سعد فيها . ولكن شقاءه كان طويلاً ملحاً ، وسعاده كانت سريعة خاطفة . كان يشقى بالتبطل والفراغ والبؤس ،

وكان يسعد بذلك الصوت العذب الذى كان يتاجيه بين حين وحين ، وربما أيقظه من نومه مفزعاً ، مسروراً مع ذلك بهذا الفزع . وكان يسعد بهذه الرسائل التى كانت تصل إليه بين حين وحين فيها كثير من الأمل المشفق ، وكثير من التشجيع على الاحتمال الثابت ، وربما اشتملت بعض هذه الرسائل على زهرة قد جففت وأرسلت إليه ليحملها كما تحمل التائب ولتذكره إن عرض له النسيان .

وشهد الله ما عرض له النسيان قط . .

فى هذه الأشهر الثلاثة شكى الفتى كما لم يشك قط فى حياته ، شكاً شراً ونثراً حتى لأمه فى ذلك بعض الصديق ، وقال له قائلهم أين الصبر ؟ وأين الإجمال ؟ وأين الشجاعة والاحتمال ؟ وأين ذهب عنك الحياء حتى كتبت فى بعض الصحف هذين البيتين :

الحمد لله على أنى قد صرتُ من دهرى إلى شرِّ حال
لا أملكُ القوتَ ولا أبتغى ما فاتنى منه بُدْلُ السؤال

وقال له قائلهم أيضاً : املك عليك نفسك ، فإنك إن تكن تشكو الزمان إلى الزمان فهو لن يسمع لك ، لأن الزمان أصم غي غافل ذاهل ، لا يعرف بنيه ولا يسمع لهم ، وإن كنت تشكو الزمان إلى الناس : فالناس مشغولون عنك بأنفسهم ، وهم بين رجلين : عاطف عليك ، ولكنه لا يقدر لك على شيء ، وقادر على معونتك ، ولكنه لا يحفل بك ولا يلقى إليك بالا ، ولو قد أهدى إليك العون لما قبلته منه ، فأرى أنك ترضى لنفسك هذا الهوان .

ولكن صاحبنا لم يقلع عن شكايته ، لأنه لم يكن يشكو الزمان إلى الزمان ، ولا يشكو الزمان إلى الناس ، ولا ينتظر من الزمان ولا من الناس شيئاً ، وإنما كانت الشكوى غناء نفسه المحزونة وباله الكئيب .

فى تلك الأيام كان عبد الحميد حمدى - رحمه الله - يصدر جريدة « السفود »

في كل أسبوع ، ويطلب إليه وإلى غيره من الصديق أن يعينوه بالكتابة فيها ، فكان صاحبنا يرسل إليه حديث نفسه ذلك المرّة .

وكان يتردّد على الجامعة ويسمع بعض دروسها ، فسمع ذات يوم درس الأستاذ المهدي ، رحمه الله ، وكان له مع الأستاذ تلك الخطوب التي رويت في حديث مفضي ، والتي كادت تفصله من بعثة الجامعة لولا أن أعضاء مجلس الإدارة كانوا أفاقه وأذكي من أن يستجيبوا للأستاذ رحمه الله .

وفي تلك الأيام طلب عبد الحميد حمدي إلى الفتى أن ينشر كتابه عن أبي العلاء ، فاستجاب الفتى لذلك سعيداً مجبوراً . وجد في ذلك تسلياً لبعض همّه ، وشغلاً لبعض وقته ، وإرضاء لغروره الذي كان في حاجة إلى بعض الرضا ، بعد أن أسرفت الأيام في القسوة عليه . وأى رضا للغرور أعجب إليه وآثر في نفسه من أن يظهر له كتاب في أيامه تلك الشداد ؟

وقد نشر الكتاب ، ولكن صاحبنا لم يُفدّ من نشره مالا قليلا أو كثيراً ، ولم يفد منه رضاءً قليلا أو كثيراً . فقد أُعجل عن هذا كله ، دعاه علوي باشا ذات يوم ، وأنبأه - في رفق به وعطف عليه لم ينسهما قط - أن أزمة الجامعة قد انفجرت ، وأن عليه أن يتأهب للسفر ، فسيحرم مع صاحبه الدرعمي وغيره من أعضاء البعثة بعد أيام .

ثم أنبأته الجامعة بعد ذلك بأنه سيتشرف مع زملائه أعضاء البعثة بقاء السلطان حسين كامل .

وقد أتبع لهم هذا اللقاء في ضحى يوم من الأيام ، ذهبوا إلى القصر يقودهم علوي باشا ، وأدخلوا على السلطان ، فلقبهم لقاء حسناً ، وألقى على الفتى سؤالاً لم يعرف كيف يرد عليه .

سأله : من أول من رفع شأن التعليم في مصر ؟

فَوَجَّهَ الفتى ولم يرجع جواباً .

قال السلطان وهو يضرب على كتفه وينطق في لهجة تركية : جنة مكان إسماعيل باشا .

ثم صرف الرفاق ، ولم يكادوا يخرجون من غرفة الاستقبال حتى أنبأهم منبئ بأن السلطان قد تفضل وأجاز كل واحد منهم بخمسين جنيهاً
وخلص الرفاق بعد أن خرجوا من القصر نجياً ، فقرروا أن يهدوا جوائزهم إلى الجامعة معونة لها واعتزافاً ببعض ما قدمت إليهم من جميل . وكانوا بهذا القرار سعداء حقاً كأنما أهلوا إلى أنفسهم خيراً عظيماً ومعرفةً جزيلاً .

وهم يسمعون إلى علوى باشا - رحمه الله - ليرفعوا إليه قرارهم ذاك . منتظرين أن يسمعوها منه رضاً عنهم وثناء عليهم وتشجيعاً لهم على أن يكونوا أخصياراً . ولكن علوى باشا يلقاهم ويسمع منهم ، ثم يفرق في ضحك متصل ، ثم يقول لهم : ما هذا الكلام الفارغ ؟ ! خنوا أموالكم واذهبوا ، فاعثوا بها في باريس ، أيها الحمقى . . فن حاكم أن ترّفهوا عن أنفسكم أياماً بعد ما لقيتم في هذه الأشهر من عناء طويل ثقيل !!

ثم يسكت حينئذ ثم يقول : فإذا أصبحتم أغنياء فاستأنفوا ما أقدمتم عليه من خير ، وما أراكم تفعلون يومئذ ، فستعرفون قدر المال .

وانصرف الرفاق عن علوى باشا لا يعرفون أكانوا راضين ، لأنه قد حفظ عليهم أموالهم لينفقوها في باريس . . أم كانوا ساخطين لأنه لم يقبل منهم تبرعهم ذلك الذي أقدموا عليه مخلصين ؟

وفد الرفاق صباح يوم إلى الجامعة ليأخذوا منها تذكرة السفر ، ولكن صاحبها يسمع ما يؤذيه أشد الأذى وأمضه .

فقد أبت شركة السياحة أن تصرف له تذكرة السفر إلا بإذن خاص من



المفوضية الإيطالية ، فقد كان الرفاق سينزلون في نابولي ، وكانت الشركة تخشى ألا يؤذن لصاحبنا بالتزول في إيطاليا لأنه ضرير ولا يحسن السعى في اكتساب الرزق . وظنّ الفتى ، وفي قلبه حزن أى حزن ولوعة أى لوعة ، أنه سيُردّ عن السفر مرة ثالثة . ولكن الأستاذ لطفى السيد والأمير أحمد فؤاد ييسران له سفره ، ويصبح من غد فيركب القطار إلى بورسعيد ، ويصعد إلى سفينة هولندية تعبره البحر إلى نابولي . وما أعظم الفرق بين سفره هذا إلى نابولي وعودته تلك إلى الإسكندرية ! كان لا يملك نفسه من الفرح والمرح والسرور . وكان كل شيء يضحكه وبغيره بالبهجة والاعتباط حتى حين أقبل الخادم عليه وعلى صاحبه الدرعى بعد أن تقدم الليل قليلا فقال لهما : إذا سمعنا الجرس فأسرعا إلى اتخاذ منطقة النجاة ثم أسرعا إلى الزورق المخصص لكما .

قال الدرعى : وفيم هذا كله ؟

قال الخادم : فإنك تعلم أن الحرب قائمة ، وأنتا لا تأمن من أن تعرض لنا في الطريق إحدى الغواصات . ثم انصرف . وأخذ صاحبنا الدرعى يُعول شاكياً باكياً ذاكراً أمه التي لن يراها ولن تراه . والفتى مغرق في ضحك لا يكاد ينقضى .

ولم تعرض للسفينة غواصة ، ولم يلق المسافرين كيداً ، وإنما بلغوا مدينة نابولي ذات صباح ، ولم يكادوا يطأون الأرض الإيطالية حتى ألح صاحبنا على صديقه الدرعى في الإسراع إلى مكتب البريد .

وهناك وجد رسالتين كانتا تنتظرانه من باريس . فقرأهما عليه صديقه مرة ومرة ، فلما طلب منه قراءتهما للمرة الثالثة ، قال له منكرأ : إليك عني ، فإن في مدينة نابولي ما هو أنفع لنا وأجدى علينا من ترديد هذا الكلام الذى حفظناه عن ظهر قلب ! . وأنفقاً في نابولي يوماً سعيداً ، حتى إذا كان الليل ، ركبنا القطار إلى باريس .

في الحى الدرسى ..

وكان صاحبنا مقسم النفس بين السعادة المشرقة والشقاء المظلم فى أثناء سفره هذا الطويل منذ ترك القاهرة إلى أن بلغ باريس .

كان سعيداً لأن الغمرة قد أنجلت عنه ، فاتصل من إقامته فى فرنسا ما انقطع ، وأذن الله له فى أن يتم ما بدأ من الدرس ، ويحاول تحقيق ما كان يداعب من الآمال ، ويسمع من جديد ذلك الصوت العذب يقرأ عليه روائع الأدب الفرنسى وأوليات التاريخ اليونانى الرومانى ، ويعينه على درس اللاتينية .

وليس هذا كله بالشىء القليل ، وبعض هذا كان جديراً أن يُنسيه كل ما لقي من جهد ، وكل ما احتمل من عناء . ولكنه كان يحمل فى نفسه ينبوعاً من ينابيع الشقاء لا سبيل إلى أن يفيض أو ينضب إلا يوم يفيض ينبوع حياته نفسها ، وهو هذه الآفة التى امتحن بها فى أول الصبا ، شَبَقَى بها صبيّاً ، وشَقَى بها فى أول الشباب ، وأتاحت له تجاربه بين حين وحين أن يتسلّى عنها ، بل أتاحت له أن يقهرها ويقهر ما أثارته أمامه من المصاعب وأنشأت له من المشكلات ؛ ولكنها كانت تأتي إلا أن تظهر له بين حين وحين أنها أقوى منه ، وأمضى من عزمه ، وأصعب مراساً من كل ما يفتق له ذكاؤه من حيلة .

والغريب من أمره وأمرها أنها كانت تؤذيه فى دخيلة نفسه وأعماق ضميره . كانت تؤذيه سراً ولا تجاهره بالخصومة والكيد . لم تكن تمنعه من المضى فى الدرس ،

ولا من التقدم في التحصيل ، ولا من النجاح في الامتحان حين يعرض له الامتحان ، وإنما كانت أشبه شيء بالشيطان الماكر المسرف في الدهاء الذى يمكن للإنسان في بعض الأحناء والأثناء بين وقت ووقت ، ويخلى له الطريق يمضى فيها أمامه قُدماً ، لا يَلْوِي على شيء ، ثم يخرج له فجأة من مكنته ذاك هنا أو هناك ، فيصيبه ببعض الأذى ، ويشئى عنه كأنه لم يعرض له بمكره بعد أن يكون قد أصاب من قلبه موضع الحس الدقيق والشعور الرقيق ، وفتح له باباً من أبواب العذاب الخفى الأليم .

كان حين ركب السفينة لأول مرة وخرج من زِيَه ذاك الأزهرى ودخل في زِيَه الأوربي الجديد قد نسى شيئاً واحداً لم يحسب له حساباً لأنه لم يكن يخطر له ببال ، نسى بصره ذاك المكفوف ، وأجفانه تلك التى كانت تنفتح ولكن على الظلمة المظلمة .

وكان قد قرأ فيما قرأ من أحاديث أبى العلاء أنه كان يقول : إن العمى عورة . وفهم هذا كما فهمه أبو العلاء نفسه . فكان يتحرّج في كثير من الأشياء أمام المبصرين . وكان يستخفى بطعامه وشرابه كما كان يستخفى بهما أبو العلاء حتى لا يظهر المبصرون منه على ما يثير الإشفاق ، والراء أو السخرية .

ولم يخطر له قط أن الحياة الحديثة تفرض عليه أن يستر أجفانه تلك التى لا تغنى عنه شيئاً سترأ مادياً . وقد أنفق أيامه في السفينة الأولى على هذا النحو ، ولكنه لم يلق كيداً ، لأنه لبث تلك الأيام قابلاً في غرفته لا يتجاوز بابها مهما تكن الظروف ، إلا أن يضطر إلى ذلك اضطراراً ، فكان لا يخرج في تلك الحال إلا حين يتقدم الليل .

فلما بلغ مارسيليا نبّه رفاقه في تلطف أىّ تلطف أن تقاليد الفرنسيين تقضى على مثله أن يضع على أجفانه تلك غطاء من زجاج أسود . واشتروا له غطاء من

تلك الأغطية الزجاجية السود التي يتنّى بها المبصرون ضوء الشمس . ولم يؤذنه تنبيه الرفاق له إلى ذلك وإنما رأى فيه تجديداً ، وارتاح إليه بعض الارتياح ، وكاد يعو من الشقاء بعينه المظلمتين ، ثم لم يفكر في شيء من أمرهما ولا من أمر غطائهما ذاك الأسود حتى عاد إلى مصر . وفي مصر لقيه أكبر إخوته رحمه الله . وكان مطرباً مبالاً إلى الترف على ضيق ذات يده وضآلة مرتبه . فلما رآه أنكر غطاء عينيه وقال : إنه رخيص حقير لا يليق بمثلك .

قال الفتى : وما على أن يكون رخيصاً أو حقيراً ، فما ينبغي لمثل أن يزيّن بمثل هذا الغطاء .

قال أخوه : ولكن غطاءك هذا لا يزيد ثمنه على قرشين اثنين ، وأنا مهّد إليك خيراً منه أستر لعينيك وأليق بمكانتك بين الذين تلقاهم من الرفاق والصدق ، وبين الذين تزورهم من أصحاب المكانة الظاهرة في مصر .

ثم أهدى إليه غطاء ذهبياً ، وعزم عليه ليتخذته مكان ذلك الغطاء الرخيص الحقير واستجاب الفتى لأخيه شاكراً رفقه به وعطفه عليه . وأقام في مصر ما أقام يحمل على أنفه وأذنيه ذلك الغطاء الذهبي الذي لم يكن رخيصاً ولا حقيراً . ولكن عودته إلى أوربا تتقرر ويغدو على الجامعة ذات يوم فيقرأ عليه كتابان ، ثم يروح إلى منزله فيقرأ عليه كتاب ثالث كان قد حمله البريد صباح ذلك اليوم . وتعلأ هذه الكتب الثلاثة قلب صاحبنا غماً وهمماً وبغضاً للحياة وضيقاً من الناس ، وتلوى على نفسه ووجهه غشاء صفيقاً من الكآبة ينكره الرفاق

وينكره علوى باشا - رحمه الله - حين يراه وهو يركب القطار ، ويرى على وجهه هذا الغشاء الكتيب ، فيهمس في أذنه : مالى أراك محزوناً كثيراً . وقد كنت أقدر أن أراك اليوم أشد ما تكون ابتهاجاً وإشراقاً . ألا يسرك أن تعود إلى

ولم يجب الفتى . . ولكن دمعين تنحلران على خديه .
وإذا علوى باشا يضمه إليه ويقبل جبهته قبله ملؤها الحنان والبر لم ينسها
قط .

ثم يهمس في أذنه : أقسم لك يا بني ما عاد صديقك هذا - يريد الدرعى -
إلى فرنسا إلا من أجلك . . تق بالله ولا تخف شيئاً .

ومضى القطار وقد سكّت البكاء عن الفتى . ولكن هذه الكتب الثلاثة لم
تسكت عنه ، وإنما رافقته في أثناء سفره كله ملحّة عليه بالعذاب ، حتى لكانت
جديرة أن تبغض إليه نفسه لولا ذلك الصوت العذب كان يناجيه بين حين وحين ،
فيردّ إلى نفسه المروعة شيئاً من أمن وإلى قلبه اليائس شيئاً من أمل .

كان أول هذه الكتب الثلاثة من علوى باشا إلى أكبر إخوته ذاك المطربش
ينبته فيه بأن الظروف المالية للجامعة قد فرضت عليها أن تردّ بحثها إلى مصر كارهة ،
وأنه حريص أشد الحرص على أن يتم أخوه درسه ، لأنه يتوسم فيه خيراً ، ويكره أن
يعود قبل أن يحقق أمله من السفر إلى فرنسا ، ويقترح عليه أن ترسل الأسرة نصف
المرتب الذى كانت الجامعة تمنحه للفتى ، ويتبرع هو بالنصف الآخر حتى يبلغ
الفتى أربه ، ويعود وقد ظفر بالدرجات الجامعية الفرنسية ، ويصبح أستاذاً في
الجامعة .

وكان هذا الكتاب جديراً أن يملأ قلب الفتى سروراً ورضاً وشكراً لعلوى
باشا ، ذلك الذى كان الناس يكترون الحديث عن حرصه على المال وإشفاقه من
إنفاقه في غير موضعه ، وهو يتبرع بمقدار من المال في كل شهر ليعين هذا الفتى المكفوف
على أن يبلغ من الدرس في أوروبا ما كان يريد .

نعم ، كان هذا الكتاب جديراً أن يملأ قلب الفتى سروراً وبشراً وشكراً لذلك
الرجل الكريم النبيل ، ولكن ردّ أخيه على هذا الكتاب محا من قلبه كل سرور

وكل بشر ، وإن لم يجمع منه الشكر الدائم والاعتراف بالفضل والجميل لذلك الرجل الكريم . . كان رد أخيه بشعاً حقاً ، كان يشكر فيه للباشا فضله وكرمه ، ويعتذر فيه عن الأسرة بأنها فقيرة لا تستطيع أن تستجيب لما تُراد عليه . فرتبه هو ضئيل لا يبلغ العشرين جنيهاً ، وله بنون ينفق عليهم . ووالده شيخ يعمل على تقدّم سنه ، ويتقاضى مرتباً لا يزيد على مرتبه هو إلا قليلاً ، وله بنون آخرون ينفق على تعليمهم في المدارس ، وكم كانت الأسرة تتمنى أن تعين هذا المسكين على أن يتم درسه لو وجدت إلى ذلك سيلاً ! وهى تطلب إلى الباشا أن يستعين بالسلطان على تعلم هذا البائس ، فإن لم يجد إلى ذلك سيلاً فليردّه إلى مصر وليستبق رعايته له وعطفه عليه .

وكذلك رأى القى رجلاً غريباً مستعداً للقيام ببعض نفقته في أوروبا ، وأخاً قرياً كارهاً لبعض ما يطلب إليه من ذلك . والغريب أنه لم يبنئ بأمر هذا التبرع من علوى باشا أباه ولا أخاه الشيخ ، وإنما كتم القصة عن الأسرة كلها . وكان له - رحمه الله - عذره في هذا الكتمان . فقد كان أبوه يرسل إليه بين حين وحين جنيهاً تبلغ العشرة مرة ، وتزيد عليها مرة أخرى ، ويكلفه أن يرسلها إلى أخويه في أوروبا معونة لهما على الحياة ، فكان يتلقى هذه الجنيهاً فإذا استقرت في يده لم يسهل عليه إرسالها إلى أوروبا ، وإنما أنفقها في بعض شأنه هو .

أما الكتاب الثالث فكان من أكبر إخوته ذاك يودّعه ويتمنى له النُجَح والتوفيق ، ويسترد غطاء عينيه الذهبي ، لأنه كان شديد الحاجة إليه .

وما أيسر ما ردّ القى ذلك الغطاء الذهبي ، وعاد إلى غطائه ذاك الرخيص الحقيق الذى لم يكن ثمنه يزيد على قرشين اثنين . ولكن كتاب أخيه في أمر ذلك الغطاء قد أضاف إلى حزنه حزناً ، وإلى ألمه ألماً . وعاد إلى فرنسا سعيداً مجبوراً ، ولكنه مع ذلك كان مزوداً بمقدار من الشقاء غير قليل .

ولم ينس صاحبنا قط أنه أجلس في مكانه من القطار حين بلغ روما وقد انتصف الليل ، فلم يرح مكانه ذاك إلى جانب النافذة إلا حين بلغ القطار باريس بعد ثلاثين ساعة كاملة لم يتحرك ، وإنما كان أشبه بمتاع قد أُلقي في ذلك الموضع ، وانتظر حتى يبلغ القطار غايته لينقل إلى موضع آخر . لم يتحرك ، وكان أشبه شيء بالمتاع ، ولكنه كان متاعاً مفكراً . يفكر مرة فيما حفظ من قول أبي العلاء إن العمى عورة ، وقد فهمه الآن على وجهه وهو يرفع يده بين حين وحين ليتحقق من أن ذلك الغطاء الرخيص الحقيق ما زال يستر عينيه اللتين كان يجب أن تسترا .

ويفكر مرة أخرى في الفقر والغنى ، وفي الذين لا يعرفون كيف ينفقون ما يتاح لهم من المال ، فيكدسونه أكداً أو ينثرونه نثراً فيما لا يجدى عليهم ولا على غيرهم شيئاً ، والذين لا يجدون ما ينفقون ليقيموا أودهم ويستروا جسمهم ويستروا عورة العمى حين تفرض عليهم آفته ، وفي الذين تسمو همهم إلى أكثر من إقامة الأود وستر الجسم وتغطية العينين المظلمتين إلى الاغتراب في طلب العلم ، ثم لا يجنون أيسر ما يحتاجون إليه في ذلك . يبخل عليهم القادرون ، ويبخل عليهم الأقربون ، وبهم بالإحسان إليهم بعض الأخيار فيردون عن ذلك رداً

ويفكر مرة ثالثة في ذلك الصوت العذب الذي كان ربما ألم به بين حين وحين مواسياً له مترقياً به قارئاً عليه هذا الفصل أو ذاك من هذا الكتاب الفرنسي أو ذاك ، سنبأ له بين ذلك بأنه ينتظره في باريس ليقرأ عليه ، وما أكثر ما سيقراً عليه !

لبث في مكانه ذاك لم يرحه ثلاثين ساعة كاملة ، يعرض الرفاق عليه الطعام حين يأتي موعده فيرده في رفق ولكن في تصميم ، ويعرض عليه الرفاق الشراب بين وقت ووقت فيرده في رفق وفي تصميم أيضاً . ويريد الرفاق أن يراجعوه في ذلك فيجلون منه إغراضاً وصمتاً ، حتى ظنوا به الظنون ، وحتى يقول له رفيقه الدرعى ما رأيت كاليوم رجلاً لا يخاف البحر على هوله وعلى ما كان يُذكر من أمر

الفواصات ، فإذا ركب القطار امتلأ قلبه رعباً ورغب حتى عن الطعام والشراب .
أشجاعة حين كان يستحب الجبن ، وحين حين يصبح الجبان مثيراً للهزة والسخرية ؟
ما الذي تخاف من القطار ؟ إن قطار أوروبا كقطار مصر لا فرق بينهما . ألم تأكل
قط حين ركبت القطار في مصر ؟

ثم ينصرف عن هذا الحديث إلى غناؤه ذلك الذي كائن يتغنى به أمام بعض
الفتيات الفرنسيات ، فيرضين عنه أشد الرضا ، ويُعجبين به أشد الإعجاب ، ولا
يَلْقِيَنَّه إلا تَمَتِّين عليه أن يعيد عليهن غناؤه ذلك ، وكن يسمينه « أعرابي » ، فيقلن
له في إلحاح : غن لنا « أعرابي » .

يلغين العين ويلغض بالراء ويقصرون الألف بينها وبين الباء . ويرتاح صاحبنا
إلى إلحاحهن فيندفع في غناؤه على نحو ما يصنع بعض المنشدين في الأذكار :

يَا رَبِّ صَلِّ عَلَى الْهَادِي وَاغْفِرْ مَا أَنْتَ بِهِ أَعْلَمُ
أَعْرَابِي جَاءَ إِلَى الْهَادِي مَعَهُ ضَبٌّ لَا يَتَكَلَّمُ

يوقع هذا الغناء على نغم مرقص ، وكان الفتى لا يسمعه إلا أغرق في ضحك
متصل . وكان ربما تمتنى عليه بين حين وحين أن يغنى له أعرابي ، ينطقها كما ينطق
بها الفتيات الفرنسيات ، ولكنه في ذلك القطار لم ينشط حتى لهذا الغناء ، واستيأس
منه صديقه الدرعى ، فخلل بينه وبين ما أحب من السكون والصمت . وأعرض عنه
كما كان يعرض عن متاعه ، يرمقه بين حين وحين ليأمن عليه من السرقة والضيق ،
ولكنه لا يتحدث إليه ولا يعرض عليه شيئاً ، حتى إذا بلغ القطار باريس في أول
الضحى أقبل على الفتى متضحكاً وهو يقول : سننقل المتاع الصامت الهامد
أولاً ، ثم ننقل المتاع الحي الناطق بعد ذلك !

وأسلم الأمتعة إلى الحمالين ثم أقبل على الفتى كأنه يريد أن يحمله ، ولكن
الفتى نهض ومضى معه كأنه لم يسكن ثلاثين ساعة كاملة .

وبعد قليل كان الفتى فى غرفة جميلة رائعة بفندق من فنادق الحى اللاتينى .
 ولم يكذب يستقر فى غرفته حتى أصلح من شأنه ، ونبأ لاستقبال شخص طالما
 نازعته نفسه إلى لقائه منذ شهر ، وطالما أشفق من ألا يلقاه أبداً .
 ويطرق الباب طرقة رفيقاً فى آخر الضحى ، فإذا أذن بالدخول دخل عليه
 شخصان لم يكذب يسمع صوت أحدهما حتى انجلى عنه حزنه ، وانجذب عنه يأسه ،
 وانصرف عنه الهم ، كأنه يستأنف حياة جديدة لم يحيا من قبل . ولم لا ؟ لقد
 بدأ منذ ذلك اليوم حياة ليس بينها وبين حياته الأولى سبب أو صلة .

الفصل الرابع عشر

رَصة حب..

كانت حياة الفتى في باريس حلوة مرةً ويسيرة عسيرة ، لم يعرف فيها سعةً ولا دعةً ، ولكنه ذاق فيها من نعمة النفس وراحة القلب ورضا الضمير ما لم يعرفه من قبل وما لم ينسه قط . كانت حياته المادية شاقة ، ولكنه احتمل مشقتها في شجاعة ورضا وبمجامح ، لم يكن مرتبه يتجاوز ثلثمائة من الفرنكات ، كان يدفع ثلثيه في اليوم الأول أو الثاني من كل شهر ، ثمناً لمسكنه وطعامه وشرابه ، وكان يدفع نصف الثلث الذي كان يبقى له أجراً لسيدة كانت تصحبه إلى السوربون مصححاً وممسياً ، ليسمع فيها دروس التاريخ على اختلافها ، وتقرأ له بين ذلك ما شاء الله من الكتب حين لا يخلو له ذلك الصوت العذب الذي كان قد رتب له ساعات بعينها في النهار ، ليقرأ له فيها روائع الأدب الفرنسي ، وكان يستبقي فضل مرتبه بعد ذلك لينفق منه على ما يعرض من حاجاته اليومية ، فأما أمر كسوته فقد تركه إلى الله لأن مرتبه لم يكن يتسع له .

وأنفق السنة الأولى من حياته في باريس لا يخرج من بيته إلا إلى السوربون . فكان سجيناً أو كالسجين ، لم يذكر قط أنه خرج من باريس إلى ضاحية من ضواحيها في أيام الراحة التي كان رفاقه ينفقون فيها أيام الآحاد ، ولم يذكر قط أنه اختلف إلى قهوة من قهوات الحي اللاتيني التي كان رفاقه الجادون يلمون بها بين حين وحين ، وكان أكثر الطلاب المصريين يختلفون إليها أكثر مما كانوا يختلفون إلى

الجامعة ، وإنما كان يلزم بيته في أيام الراحة لا يفارقه ، وربما خلا إلى نفسه اليوم كله في غرفته ، إلا أن يلم به ذلك الصوت العذب فيقضى معه ساعة من نهار .

وكان يسمع أنباء المسارح ومعاهد الموسيقى واللهو ، وكانت نفسه ربما نازعته إلى بعض هذه المسارح لسمع هذه القصة أو تلك ، ولكنه كان يردّ نفسه في يسر إلى القناعة والرضا . وكيف السبيل إلى غير ذلك وهو لا يستطيع أن يذهب وحده إلى حيث يريد ، ولا يستطيع أن يدعوا غيره إلى مرافقته ، ولا يريد أن يكلف غيره من الناس عناء مرافقته من جهة وتحمل ما تقتضيه هذه المرافقة من النفقات من جهة أخرى ، ولم تكن ذكرى أبي العلاء تفارقه في لحظة من لحظات اليقظة إلا أن يشغل عنها بالاستماع إلى الدرس أو إلى القراءة . كان يذكر دائماً قول أبي العلاء في آخر كتاب من كتبه إنه رجل مستطيع بغيره ، وكان يرى نفسه مستطيعاً بغيره دائماً ، ويحتمل في سبيل ذلك من غيره هذا الذي يتيح له الاستطاعة ألوأناً من المشقة وفنوناً من الأذى بدون أن ينكر منها شيئاً ، فهو مكروه على احتياها إكراهاً ، وهو مخير بين أن يقبل ما يكره من غيره من الذين كانوا يعينونه على ما يريد أو يرفضه فيضطر إلى العجز المطلق اضطراراً ، ويضيع حياته في باريس بل حياته كلها في باريس أو غير باريس ، وكيف السبيل له إلى أن يذهب إلى السوربون لسمع الدروس فيها إذا لم تعنه على ذلك هذه السيدة التي لم يكن من معوتها بدءاً ، والتي كانت ترفق به أحياناً وتعنف به أحياناً أخرى ، وربما صحبتته من البيت إلى الجامعة بدون أن تلقى إليه كلمة أو يسمع لها صوتاً . وإنما كانت تعطيه ذراعها وتمضى معه صامته كأنما تجرّ متاعاً لا ينطق ولا يفكر . حتى إذا بلغت قاعة الدرس أجلسته إلى مائدة من موائدها ، وانصرفت عنه إلى خارج القاعة فانتظرت حتى إذا فرغ الأستاذ من درسه أقبلت عليه فأقامته من مجلسه ، ومضت به إلى بيته . حتى إذا انتهت به إلى غرفته أدخلته فيها وأغلقت من دونه الباب ، وهي تقول له في صوت

خاطف : « إلى اللقاء في ساعة كذا من النهار » .

وربما اعتذرت هذه السيدة من مهمتها بعد أن تجد له سيدة أخرى تقوم مقامها . فكانت هذه السيدة الثانية ثرثرة تؤذيه بحديثها المتصل أكثر مما كانت تلك تؤذيه بصمتها الملح . . .

على أن عجز الفتى لم يكن مقصوداً على ذهابه إلى الجامعة وعودته منها ، وإنما كان عاماً شاملاً لمس الفتى في أشد الأشياء لزوماً له ، فهو كان يستحي من كل شيء . ويكره أن يثير الضحك منه أو الرثاء له والإشفاق عليه . وكان شرطه حين سكن في البيت الذي أقام فيه ألا يشارك أهله في طعامهم ، وإنما يخلو إلى طعامه الذي يحب أن يحمل إليه في غرفته حين يأتي وقته ، فكان الطعام يحمل إليه ويوضع بين يديه ثم يخلو بينه وبينه فيصيب منه ما يستطيع لا ما يريد . يحسن ذلك أحياناً ويحفظه أحياناً أخرى ، وربما وضع بين يديه من ألوان الطعام ما لا يحسن تناوله فيتركه مؤثراً العافية ، محتملاً في سبيلها ما قد يتعرض له أحياناً من ألم الجوع . وظل الفتى على هذه الحال أشهراً ، ولكن الله رفق به بعد ذلك فأتاح له من كان يهيئ له طعامه ويعلمه كيف يرضى منه حاجته .

واتخذ الفتى زى الأوربيين ، وما أسرع ما تعلم الدخول فيه والخروج منه ، إلا شيئاً واحداً لم يحسنه أعواماً طويلاً ، وهو هذا الرباط السخيف الذي يديره الناس حول أعناقهم ثم يعقدونه بعد ذلك من أمام عقدة يتأنقون فيها قليلاً أو كثيراً ! لم يفتح الله على صاحبنا بتعلم هذا الجزء من زيه ، فكان أخوه يدير له هذا الرباط حول عنقه ما عاشا معاً في مونيخ .

فلما افترقا حار الفتى في أمره ، ولكن صديقه الدرعى أخرجه من هذه الحيرة ، واشترى له أربطة مهيأة لا تحتاج إلى عناء ، وإنما تدار حول العنق في يسر ويجمع بين طرفيها في يسر أيضاً ، وقد هيئت عقدها فليس محتاجاً إلى أن يتكلف

عقدها وتسويتها والتأنيق القليل أو الكثير فيها ، ولكنه كان مضطراً إلى ألا يفكر مطلقاً في الملامة بين هذه الأربطة وبين ما كان يتخذ من ثياب . وربما اتخذ منها رباطاً واحداً يديره حول عنقه في كل يوم ويمضي على ذلك الأسابيع المتصلة ، وربما لاحظ هذا الرفيق أو ذاك من رفاقه اختلافاً بين ثوبه ورباط عنقه ، وربما أعانه صديقه الدرعى فتقدم إليه في أن يغير هذا الرباط واختار له ما يلائم زيه بما كان عنده من هذا السخف الذى لم يفهم له معنى قط .

وكذلك عاش الفتى عامه الأول أو أكثر هذا العام ، مضطرباً في هذه الحياة المادية المختلطة المعقدة من جميع نواحيها . وربما كان يجد بعض الألم في ذلك ، ولكنه كان يمر به مرّاً سريعاً لا يقف عنده ولا يفكر فيه إلا قليلاً . كان يعزيه عن ذلك إقباله على الدرس ، وإحساسه الانتفاع به والتقدم فيه ، وشعوره بأنه قد أخذ يفهم الفرنسية في غير مشقة ولا عسر ، ويقرأ كتب التاريخ والأدب والفلسفة ، فلا يجد في فهمها جهداً ولا عناء ، قد انقطع لذلك انقطاعاً تاماً ، فهان عليه منه ما كان صعباً ، ويسر له منه ما كان عسيراً .

ولم تكن حياته العقلية أقل تعقيداً والتواء من حياته المادية ، فلم يكد يختلف إلى دروس التاريخ والأدب في السوربون حتى أحس أنه لم يكن قد هيئ لها ، وأنه لا يفهمها ولا يسيفها كما كان ينبغي أن تفهم وتساغ ، وأن درسه الطويل في الأزهر وفي الجامعة لم يهيئه للانتفاع بهذه الدروس .

وكانت آماله عراضاً ، فكان ينبغي أن يتخذ إليها أسبابها ، وأول هذه الأسباب أن يعد نفسه لفهم الدروس التي تلقى في الجامعة ، وسبيل هذا الإعداد أن يقرأ في أقصر وقت ممكن ما كان التلاميذ الفرنسيون يتفوقون الأعوام الطوال في درسه بمدارسهم الثانوية . فليس له بدّ إذن من أن يكون تلميذاً ثانوياً إذا أوى إلى بيته ، وطالباً جامعياً إذا اختلف إلى دروس السوربون .

وما أسرع ما نظر في برنامج المدارس الثانوية الفرنسية ، واستخلص منه ما يحتاج إليه ، وأزمع أن يدرس منه التاريخ والجغرافيا والفلسفة ، وهذه الخلاصات الموجزة التي كانت تلى إلى التلاميذ عن الآداب الأجنبية الأوروبية قديمها وحديثها . قد أقبل على ذلك كله في عزم لا يعرف الضعف ، وتصميم لا يعرف التردد ولا الفتور . واستطاع في وقت قصير أن يحصل من هذا كله ما يحصله التلميذ الذي كان يتقدم إلى الشهادة الثانوية مطمئناً إلى أن المنتحين لن يردوه عن هذه الشهادة خزيان أسفاً .

واستقامت له دروسه في السوربون فجعل يفهمها ويسيقها كما كان يفهمها ويسيقها زملاؤه الفرنسيون . واختار لنفسه أستاذاً من أساتذة المدارس الثانوية يعلمه اللغة الفرنسية تعليماً منظماً ، فلم يكن يكفيه أن يفهم إذا سمع ، وأن يفهم الناس عنه إذا تحدث إليهم ، وإنما كان يجب عليه أن يحسن العلم بحقائق هذه اللغة ودقائقها وأن يكتبها كتابة لا تنبو عمن يقرأها .

وكان يقلد أن الأساتذة في السوربون ، سيكلفونه بعض الواجبات المكتوبة ، كما كانوا يكلفون غيره من الطلاب . فلم يكن له بدّ إذن من أن يتبهاً لتحرير هذه الواجبات حين تطلب إليه على وجه لا يعرضه للسخرية والازدراء . وما أكثر ما كان الأساتذة يسخرون من طلابهم إذا كتبوا لهم الواجبات فقصروا في بعض نواحيها ! وكان الأساتذة يقرءون بعض هذه الواجبات ، يختارون من بينها للقراءة أشدها تعرضاً للنقد ، ثم يأخذون في هذا النقد على نحو لا ذع ممض يحرضون به الطلاب على أن يحسنوا العناية حين يكتبون . وكانت سخريتهم بالمقصرين تضحك الزملاء وتخرجهم أحياناً عن أطوارهم .

فكرة الفتى أن يتعرض لبعض هذه السخرية ، ولكنه تعرض ذات يوم لشر منها . كلفه أستاذ تاريخ الثورة الفرنسية فيمن كلف من زملائه كتابة موضوع

عن الحياة الحزبية في فرنسا بعد سقوط نابليون ، فأقبل على هذا الموضوع فدرسه كما استطاع في الكتب التي نبه إليها الأستاذ ، وفكر فيه كما استطاع أيضاً . ثم كتب عنه ما أتيح له أن يكتب ، وقدمه إلى الأستاذ في اليوم الموعد . وجاء يوم النقد فاستعرض الأستاذ ما قدم إليه من الواجبات ناقداً ساخراً مندداً متندراً موبخاً بعض الطلاب أحياناً ، حتى إذا ذكر اسم الفتى لم يزد على أن ألقى إليه واجبه معقباً بهذه الجملة المرة التي لم ينسها قط : « سطحي لا يستحق النقد » . وكان لهذه الكلمة وقع لاذع في نفس الفتى أمضه بقية يومه ، وأقضى مضجعه حين أقبل الليل ، وأشعره بأنه لم يتبها بعد كما ينبغي ليكون طالباً في السوربون ، فالتح في درس الفرنسية ، وكلف نفسه في هذا الدرس من الجهد الثقيل والعناء المتصل ما كاد يصرفه عن غيره من الدروس . وأعرض عن المشاركة في كتابة الواجبات حتى تم له أداة هذه الكتابة وهي اللغة الفرنسية .

وبينما كان الفتى يمتحن بأنقال هذه الحياة المادية والعقلية العسيرة ، مجاهداً ما استطاع الجهاد ، مروّعاً بين حين وحين بهذا اليأس الذي كان يترأى له من وقت إلى وقت فيشقيه ويضنيه ، فتح له باب من أبواب الأمل لم يكن يقدر أنه سيفتح له في يوم من الأيام . ألمت علة طارئة بصاحبة ذلك الصوت العذب الذي كان نعيمه الوحيد في حياته الشاقة المظلمة ، فأقبل يعودها وجلس يتحدث إليها ، ثم لم يدر كيف التوى به الحديث ، ولكنه سمع نفسه يلقى إليها في صوت أنكره هو قبل أن تنكره هي : أنه يحبها .

ثم سمعها تجيبه بأنها هي لا تحبه .

قال : وأى بأس بذلك ؟

إنه لا يريد لحبه صدق ولا جواباً وإنما يحبها وحسب .

فلم تجبه ، وغبرت مجرى الحديث ، وانصرف عنها بعد ساعة ، وقد استقر

في نفسه أن حياته ستملك منذ ذلك اليوم طريقاً جديدة .

وليس من شك في أن نفسه كانت قد تعلقت بذلك الصوت العذب ثم بصاحبه منذ وقت طويل . . وإلا فما جزعه حين اضططر إلى العودة إلى مصر ؟ . وما ابتهاجه بهذه الرسائل التي كانت تصل إليه ؟ . . وما شوقه العنيف إلى العودة إلى فرنسا ليسمع فيها ذلك الصوت ؟ . . وما خروجه عن طوره حين وجد الرسالتين اللتين كانتا تنتظرانه في نابولي ؟ . . وما إلحاحه على صاحبه الدرعى في أن يقرأ عليه هاتين الرسالتين مرة ومرة و مرة حتى أملة ؟ . . ثم ما حرصه على أن يسمع هذا الصوت في باريس ؟ . . وما نزوله في بيته ذاك الذي كان يسمع فيه هذا الصوت يتردد في كل ساعة من ساعات النهار ، ويلقى فيه صاحبة الصوت حين يريد لقاءها دون أن يتكلف لذلك جهداً أو سعيّاً أو انتظاراً ؟ . . وما سعادته بأنه كان يقيم في هذا البيت غير بعيد من ذلك الشخص الذي كان يلقي عليه تحية الصباح حين يخرج من غرفته ، ذاهباً إلى السوربون ويلقى عليه تحية المساء ، حين يتقدم الليل ويأوى أهل البيت إلى مضاجعهم . . ويقرأ عليه بين ذلك ما شاء الله من آيات الأدب الفرنسي ؟

ولكن حبه كان يستحي حتى من نفسه فينكرها ، وكان الفتي يخفي شعوره ذاك في أبعد ما يمكن أن يستقر من أعماق ضميره ، ويكره أن يتحدث به إلى نفسه ، وقد استيقن أنه لم يخلق لمثل هذا الشعور وأن مثل هذا الشعور لم يخلق له . . وأين هو من الحب ؟ وأين الحب منه ؟

إنما كتب عليه أن يعيش كما عاش مثله الأعلى ذلك الذي وقف حياته منذ قرون طوال في دار من دور المعرفة على الدرس ممعناً فيه ، غير معنى إلا به ، محرمّاً على نفسه ما أباح الله للناس من طيبات الحياة .

كان الفتي يطوى نفسه على شعوره ذاك يائساً منه ومن عواقبه ، راضياً بما يتاح

له من سماع ذلك الصوت ومن الحديث إلى صاحبه حين يتاح له الحديث إليها ،
وانقأ بأن هذا أقصى ما يمكن أن يساق إليه من النعيم . . غير طامع في أكثر منه .
وكان واجداً على الحياة والظروف لأنها تحول بينه وبين أكثر منه .

ولكن العلة الطارئة التي أملت بصاحبه ، والصوت العذب الذي أدركه الضعف
وشاع فيه الفتور ، والإشفاق من الألم والجهد ، على ما كان يكره له أن يحس الألم
أو يحمل ثقل الجهد ، كل ذلك ملك عليه أمره ، وملاً عليه قلبه ، وأنساه تحفظه
وتحرجه ، وأجرى على لسانه تلك الكلمة التي أنكرها . وليس غريباً بعد ذلك أنه
لم يجد حزناً ولا شقاء ولم يحس لوعة ولا ألماً حين بلغ مسمعه الرد على كلمته تلك
موتساً مقطاً . فهو لم يكن ينتظر إلا اليأس والقنوط ، قد وطن نفسه عليهما وعزى
نفسه عنهما بما كان يعمن فيه من الدرس والتحصيل .

وهو قد انصرف عن صاحبه في ذلك اليوم راضياً عن نفسه ساخطاً عليها .
راضياً عنها لأنها قالت ما لم يكن بد من أن يقال .

ساخطاً عليها لأنها عرضته بهذه الكلمة لشر عظيم ، فهي قد عرضته لإشفاق
تلك الفتاة عليه ووراثتها له وضيقها به . ومن يدري لعلها تريد أن تصرفه عنها صرفاً ،
وأن تلقى بينها وبينه حجاباً يقطع تلك الأسباب العذاب التي كانت تتيح لهما اللقاء
والاستمتاع العقلي والشعوري بما كانا يقرأان معاً من آيات الأدب الفرنسي .

ومن يدري لعل هذه الكلمة التي ألقاها في غير تدبر وعن غير إرادة أن ترده
إلى تلك الظلمة المظلمة التي ظن أنه قد خرج منها ، وأن تضطره في يوم قريب
أو بعيد إلى أن يترك ذلك البيت ويلتمس له مسكناً آخر لا يسمع فيه ذلك الصوت ،
ولا يلتقي فيه ذلك الشخص ، ولا يجد فيه شعور الرضا والنعيم . . وإنما يجد فيه
شعوراً آخر كله سخط مرّ وحزن ممض وألم مفسد للحياة .

عاش صاحبنا بين هذا السخط وذلك الرضا أياماً لم يكد يستمتع فيها بقراءة

أو درس ، ولم يكذب ينوق فيها للحياة طعماً .

ولكنه يلقى صاحبه بعد أن انجلت عنها غمرة العلة ، فإذا هي كمهده بها لم تتغير ، لم تزد إقبالاً عليه ، ولم يجد منها إغراضاً عنه ولا نفوراً منه ، وإنما هي تلقاه كما تعودت أن تلقاه رفيقاً به عطوفاً عليه ، وتقرأ له كما تعودت أن تقرأ له ، وتبين له ما يُشكل عليه في أثناء القراءة ، كما تعودت أن تفعل من قبل ، فبرده ذلك إلى شيء من الأمن ، ثم إلى شيء من الدعة وراحة البال . وتنقضي أيام . وإذا ذلك الشعور الخفي العميق الذي ظهر فجأة في ساعة من الساعات ثم استرحا وعاد إلى مستقره ذاك من أعماق الضمير ، يظهر مرة أخرى ، ولكن في تحفظ وتردد وأناة ، لا يتحدث إلى الفتاة بشيء ، ولا يتحدث إلى الفتى بشيء حين يلقاها ، وإنما يكمن في مستقره من أعماق الضمير .

حتى إذا تقدم الليل وخلا صاحبنا إلى نفسه ، وهم أن يستقبل النوم خرج ذلك الشعور من مكانه ، وذاد النوم عن صاحبه ، وجعل يسامرهم حتى يوشك الصبح أن يسفر ، ثم يعود إلى مكانه ذاك ، ويسلم الفتى إلى نوم قصير .

ولم تلبث آثار هذا الأرق المتصل أن تظهر ، وأن يلحظها أهل البيت ، وتلاحظها معهم ذات الصوت العذب ، وهم يسألونه عن أمره فيلتوى بالجواب ، وهم يريدون أن يعرضوه على الطبيب فلا يستجيب لما يريدون ، وإنما يزعم لهم أن ليس به بأس .

وما يزال هذا شأنه حتى يظهر عليه بعض الضرر . وتسأله الفتاة ذات يوم - وقد خلت إليه تقرأ عليه بعض ما كانا يقرأان - فيريد أن يلتوى بالجواب ، فتلح عليه ، وإذا هو ينيبها مريداً أو غير مريد بأمره كله .

فنسمع له ، ثم تسكت عنه ، ثم تأخذ في القراءة حتى إذا أتمتها وهمت أن تنصرف قالت له في رفق : وإذن فماذا تريد ؟

قال الفتى : لا أريد شيئاً .

قالت : فإني قد فكرت فيما أنبأتني به ، وأظلت فيه التفكير . ولم أنتهِ بعد إلى شيء ، وقد أوشك الصيف أن يظلنا وسنفتق ، فاصبر حتى إذا كان افتراقنا فستصل بيننا الرسائل كما تعودنا أن نفعل . فإذا قرأت في بعض رسائل أُنَى أدعوك إلى أن تنفق معنا بقية الصيف فاعلم أُنَى قد أجبتك إلى ما تريد . وإن لم تقرأ هذه الدعوة حتى يتقضى الصيف فاعلم أنها الصداقة الصادقة بينك وبينى ليس غير . ولم يسعد الفتى بشيء قط كما سعد بهذا الحديث . وكانت آية سعادته أنه أطرق ولم يقل شيئاً .

وأقبل الصيف وكان الافتراق . ذهبت هي إلى قرية في أقصى الجنوب . . وأقام هوفى باريس . واتصلت بينهما الرسائل . ولكنها قبل أن تفارقه كلفت زميلة لها أن تكون هي الكاتبة القارئة لرسائلهما حتى لا يطلع على هذه الرسائل زميل من زملائه . واتصل الفراق شهراً . . ولكن رسالة تصل إليه في آخر هذا الشهر وفيها الدعوة المرتقبة إلى أن يقضى معها ومع أسرته بقية الصيف . . . وإذن فقد تحقق أمله ، أو كاد أن يتحقق ، وهو يعلن إلى زملائه المصريين أنه سيرتك باريس إلى حيث يقضى الصيف مع تلك الأسرة وهم يصدونه عن ذلك مشفقين عليه .

ولكنه مصرّ على ما أراد ، فيصحبه صديقه الدرعمى ذات مساء إلى حيث يضعه في القطار ، ويوصى به بعض من فيه . . وينصرف عنه ويدعه وحيداً . ويتفق الفتى ليلاً في القطار ، لا يدرى أقصر أم طال ، لأنه لم يفكر في أثناءه إلا في هذا اللقاء الذى سيكون حين يرتفع الضحى ويبلغ القطار غايته ، وإذا الصوت العذب يدعو صاحبنا في رفق وعطف وحنان ، ويشعر بأنه منذ اليوم سيخلق خلقاً جديداً . . .

الفصل الخامس عشر

المرأة التي أبصرت بعينها !

واستأنف الفتى حياة جديدة ، بأوسع معاني هذه الكلمة وأعمقها ! كان يرى نفسه في كلمة أبي العلاء حين قال إنه أنسى الولادة ، وحشيت الغريزة . كان يرى نفسه إنساناً من الناس ولد كما يولدون ، وعاش كما يعيشون ، مقسم الوقت والنشاط فيما يقسمون فيه وقتهم ونشاطهم . ولكنه لم يكن يأنس إلى أحد ، ولم يكن يطمئن إلى شيء ، قد ضرب بينه وبين الناس والأشياء حجاب ظاهره الرضا والأمن ، وباطنه من قَيْلِهِ السخط والخوف والقلق واضطراب النفس ، في صحراء موحشة لا تحدّها الحدود ، ولا تقوم فيها الأعلام ، ولا يتبين فيها طريقه التي يمكن أن يسلكها ، وغايته التي يمكن أن ينهى إليها .

ولكنه ينظر ذات يوم فإذا هو قد أخذ يتخفّف قليلاً قليلاً من غريزته تلك الوحشية القلقة ، ويحسّ شيئاً من الأنس الرفيق إلى بعض الناس ، ثم يحس هذا الأنس يقوّي في نفسه من يوم إلى يوم ، وإذا هو لا يطمئن إلى ذلك الشخص الحبيب إليه الكريم عليه ، وإنما يطمئن إلى غيره من الناس أيضاً .

كان يرى نفسه غريباً أينما كان وحيماً حلّ ، لا يكاد يفرق في ذلك بين وطنه الذي نشأ فيه ، وبين غيره من الأوطان الأجنبية التي كان يلم بها ، لأن ذلك الحجاب الصفيق البغيض الذي ضرب بينه وبين الدنيا منذ أول الصبا كان محيطاً به ، يأخذه من جميع أقطاره في كل مكان ، فكان الناس بالقياس إليه هم الناس

الذين يسمع أصواتهم ، ويحس بعض حركاتهم ، ولكنه لا يراهم ولا ينفذ إلى ما وراء هذه الأصوات التي كان يسمعها والحركات التي كان يحسها .

كان غريباً في وطنه ، وكان غريباً في فرنسا ، وكان يرى أن ما يصل إليه من حياة الناس ليس إلا ظواهر لا تكاد تغنى عنه شيئاً .

وكانت الطبيعة بالقياس إليه كلمة يسمعها ولا يعقلها ، ولا يحقق من أمرها شيئاً ، كأنما أغلق من دونها بالقياس إليه باب لا مسيل له إلى النفوذ منه . كان ينكر الناس وينكر الأشياء . وكان كثيراً ما ينكر نفسه ويشك في وجوده !

كانت حياته شيئاً ضئيلاً نحيلاً رقيقاً لا بكاد يبلغ نفسه . وكان ربما تساءل بين حين وحين عن هذا الشخص الذي كان يحسه مفكراً مضطرباً في ضروب من النشاط ما هو ؟ وما عسى أن يكون ؟ وكان ذلك ربما أذهله عن نفسه وقتاً يقصر أو يطول ، فإذا ثاب إليها أو ثابت إليه أشفق من هذا الدهول وظن بعقله الظنون . وتساءل أينجد الناس من الدهول عن أنفسهم مثل ما يجحد ، ويحسون من إنكار أنفسهم مثل ما يحس ؟ !

كانت حياته حيرة متصلة كلما خلا إلى نفسه . وكان لا يملك أمره إلا حين كان يتحدث إلى الناس أو يسمع لهم أو يختلف إلى الدروس أو يصغى لما كان يقرأ عليه . فأخذ كل هذا ينجاب عنه وأخذ يدخل في الحياة كأنه لم يعرفها من قبل ، وكان ذلك الشخص الحبيب إليه الكريم عليه هو الذي أخرجه من عزله تلك المنكرة . فألقى في رفق وفي جهد متصل أيضاً ما كان مضروباً بينه وبين الحياة والأحياء والأشياء من الحجب والأستار !

كان يحدثه عن الناس فيلقى في رُوعه أنه يراهم وينفذ إلى أعماقهم .

وكان يحدثه عن الطبيعة فيشعر بها شعور من يعرفها من قرب .

كان يحدثه عن الشمس حين تملأ الأرض نوراً ، وعن الليل حين يملأ الأرض

ظلمة ، وعن مصابيح السماء حين ترسل سهامها المضيفة إلى الأرض ، وعن الجبال حين تتخذ من الجليد تيجانها الناصعة ، وعن الشجر حين ينشر من حوله الظل والروح والجمال ، وعن الأنهار حين تجري عنيفة والجدول حين تسعى رشيقة ، وعن غير ذلك من مظاهر الجمال والروعة ومن مظاهر القبح والبشاعة فيمن كان يحيط به من الناس ، وفيما كان يحيط به من الأشياء .

فكان يحتمل إليه أنه يكشف له عن حقائق كانت مستخفية عليه ، ولم تكن غريبة بالقياس إليه ، كأنه قد عرفها في الزمان الأول البعيد ، ثم نسيها دهرًا طويلا ، فهو يدكرها بعد أن طال عهده بها .

وكذلك أخذت تثوب إليه ثقته بنفسه وراحته إلى غيره ، وأخذ ينجلي عنه الشعور بالغربة ، والضيق بالوحدة والسأم من العزلة . وليس من شك في أنه قد صدق كل الصدق وأعرب عن ذات نفسه في غير تكثر ولا غلو حين قال في بعض ما كتب إن فثاته تلك قد جعلت شقاءه سعادة ، وضيقه سعة وبؤسه نعيمًا وظلمته نورًا .

ولم ينق الفتى وصاحبه صيفهما ذاك فيما تعود الفتیان المحبون أن ينفقوا فيه أيام حبه الأولى من تلك الحياة الهائلة الناعمة التي تخلص من المشقة وتنخف من الجهد وتفرغ لرضا النفوس وغبطة القلوب والذهاب مع الخيال الهائم في كل مذهب . وإنما عرفا أن وقتهما أضيقت من الفراغ للحب ونعيمه ، فوقت الفتى في فرنسا محلود ، وعليه واجبات يجب أن تؤدي ، وله مهمة يجب أن تم ، وهو مسؤول عن هذا كله أمام جامعة في مصر لا تعرف السماح ولا المزاح مع الذين ترسلهم إلى أوروبا ليطلبوا العلم فيها .

ولما الحق كل الحق في ذلك ، فهي إنما ترسلهم إلى أوروبا ليتعلموا لا ليحبوا ، وليجتنوا في طلب العلم لا ليتعلقوا بأسباب الخيال .

وما أكثر ما ذكر الفتى أشهر الصيف تلك في أقصى الجنوب الفرنسي ، وما جاء بعدها من الشهور في باريس ، فرضى عن صاحبه وعن نفسه رضى لا تشوبه شائبة من سخط أو إنكار .

وانظر إلى فتاة وفى في أول عهدهما بالخطبة ينفقان أكثر النهار في درس اللاتينية حين يصبحان ، وفى قراءة الترجمة الفرنسية لمقدمة ابن خلدون حين يرتفع الضحى .

فإذا جاء وقت الغداء أُلْمًا بالمائدة فأصابا شيئاً من طعام . ثم أقبلًا على تاريخ اليونان والرومان فقرأ ما شاء الله أن يقرأ .

فإذا كانت الساعة الخامسة انصرفا عن تاريخ اليونان والرومان إلى الأدب الفرنسى فقرأ ما شاء الله أن يقرأ كذلك . لا ينصرفان عن القراءة إلا ربما يخرجان للترويض خارج القرية التى يعيشان فيها . ينفقان في ترويضهما ذاك ساعة أو أقل من ساعة ، ثم يعودان إلى المائدة فيصيان شيئاً من طعام ثم تجتمع الأسرة كلها إلى كتاب يقرؤه عليها ذلك الصوت العذب .

حتى إذا تقدم الليل شيئاً تفرقت الجماعة ، وأوى كل واحد منها إلى غرفته ، وخلا صاحبا إلى نفسه يذكر ماضيه الغريب ، وينعم بحاضره السعيد ، ويفكر في مستقبله المجهول .

ينفق في ذلك أكثر الليل مؤرقاً لا يكره الأرق ولا يدعو النوم . ولكن النوم يغلبه على أمره من آخر الليل . فإذا أسفر له الصبح استقبل يومه أخذاً في الدرس كما فعل من أمس .

وعلى هذا النحو أنفق الأشهر الأولى لخطبته ، ثم يعود مع الأسرة إلى باريس فيستأنف فيها حياته الجامعية مختلفاً إلى السوربون حين يصبح وحين يمسي ، خالياً إلى قارته بين ذلك وإلى أستاذ الفرنسية يوماً وأستاذ اللاتينية يوماً آخر ، مقلداً

عبر المهمة التي تكلفها وبعد الغاية التي يسعى إليها .

وكان قد أزمع أن يظفر قبل كل شيء بدرجة الليسانس ثم يتقدم للدرجة الدكتوراه بعد ذلك ، ولم يكن الطلاب المصريون إلى ذلك الوقت يحاولون الظفر بدرجة الليسانس هذه ، لأنها كانت تكلف الذين يطلبونها عناء ثقيلاً . كانت تكلفهم إتقان الفرنسية أولاً ليؤدوا الامتحان التحريري فيما يدرسون من العلم ، وليؤدوه كما يؤديه الطلاب الفرنسيون ، يكتبون ما يراودون على كتابته في لغة فرنسية مستقيمة لا عوج فيها ولا خطأ ، وكانت تكلفهم درس اللاتينية ليؤدوا فيها امتحاناً تحريراً كذلك .

ولم تكن اللاتينية تدرس في مصر لا في المدارس الثانوية ولا في المدارس العالية .

فكان المصريون يرون أنهم لن يستطيعوا مجازاة زملائهم من الطلاب الفرنسيين في هذه اللغة التي لم يسمعوها بها قبل وصولهم إلى فرنسا ، على حين كان الطلاب الفرنسيون يدرسونها ست سنين في مدارسهم الثانوية ، ثم يدرسونها في الجامعة قبل أن يتقدموا لامتحان الليسانس .

من أجل ذلك كان المصريون يعرضون عن درسها إعراضاً لا تكلف فيه ، ويعرضون بالطبع عن درجة الليسانس التي لا سبيل إليها من غير هذه اللغة .

وكان ثلاثة من المصريين قد أزمعوا أن يقهروا هذه الصعوبة ، ويقتحموا هذه العقبة ، ويدرسوا اللغة اللاتينية ، ويظفروا بدرجة الليسانس مهما يكلفهم ذلك من الجهد والعناء . فأما أحدهم فقد جدّ وكدّ وتقدم للامتحان فأخفق ، ثم أخذ يستعدّ ليؤدى الامتحان في العام المقبل . ولكن الأسباب تقطعت بينه وبين ذلك . أدركته العلة فاضطرب أمره ، واختلط عقله ، وردّ إلى مصر فأنفق فيها أياماً كثيرة يائسة ، فاستأثرت به رحمة الله فأراحته من أثقال الحياة .

وأما الآخر فكان الأستاذ الدكتور صبرى السوربوى .

وقد جدّ وكذّ وتقدّم للامتحان مرة ومرة ، ولكن عقدة اللاتينية أدرّكه . فكان إذا أقبل على الامتحان وتلقى النص اللاتينى الذى يجب أن يترجمه إلى الفرنسية ألقى عليه نظرة سريعة . ثم طواه وقدم إلى المتقدمين صفحة بيضاء لم يمسه خطأ أو صواب . وانصرف ضاحكاً يتمثل ببيت لاتينى قديم يصور اليأس والقنوط ، ولكنه لم يعرف ياساً ولا قنوطاً ، ولم يدعن لعقبة أو صعوبة ، وإنما حاول وطاول وألحّ فى المحاولة والمطاوله حتى تقدم للامتحان ذات يوم وتلقى النص اللاتينى فلم ينظر فيه نظرة سريعة ، وإنما أقبل عليه وترجمه وقدم إلى المتقدمين صحفاً أتاحت له الفوز والنجح .

وكان صاحبنا ثالث هذين الزميلين ، وكان قد عرف من أمر صاحبيه ما يحتملان من مشقة وما يبذلان من جهد . وما يلقيان من إخفاق ، فلم يفلّ ذلك من عزمه ، وإنما مضى فى درس اللاتينية فى بيته وفى السوربون مصمماً على أن يظهر بهذه الدرجة مهما يكن دونها من العقاب .

ولكن مشكلة خطيرة عرضت له ، وكانت خليقة أن تفسد عليه أمره كله ، ولم يكن بينها وبين الدرس صلة ، فهو قد خطب تلك الفتاة إلى نفسها وإلى أمرتها ، وقد قبلت الفتاة خطبته بعد تردّد طويل ، وقبلتها الأمرة بعد امتناع وإباء . ولكن صاحبنا لم ينس إلا شيئاً واحداً ، وهو أنه قد أعطى الجامعة قبل أن يسافر إلى أوروبا ذلك العهد الذى كان يعطيه أعضاء البعثة جميعاً قبل سفرهم ألا يتزوج فى أثناء إقامته فى الخارج طالباً للعلم .

وهو لم ينقض هذا العهد لأنه خطب ولم يتزوج ولكنه عجل إلى الزواج . فليس له بدّ إذن من استئذان الجامعة أو نقض العهد الذى أعطاه لها . وقد أزعج أن يستأذنها ، وكتب إليها فى ذلك . ولكنه كان يطيل التفكير فى عواقب هذا

الكتاب ، كان يرجع ألا تأذن له الجامعة ، وكان يسأل نفسه فيطيل السؤال عما يكون من أمره إن رفضت الجامعة الإذن له فيها يريد .

وكان ذلك ربما بنقص عليه حياته من حين إلى حين . ولكن الجامعة كانت أراف به وأرحم له مما قدر . فأذنت له بعد خطوب لم يعرفها إلا بعد أن أتم درسه وعاد إلى مصر . أذنت له الجامعة إذن ، ولكنه هو لم يأذن لنفسه ولم تأذن له الفتاة حتى يظفر بدرجة الليسانس هذه التي لم يظفر بها مصرى بعد ، وحتى يشعر الجامعة بأنه صاحب جدّ ونشاط وإنتاج لا صاحب لعب وكسل واشتغال بنفسه عما يجب عليه من الدرس والتحصيل .

والغريب من أمر صاحبنا أنه لم يكن في ذلك العام يتبها لامتحان الليسانس وحده ، وإنما كان في الوقت نفسه يعدّ رسالته للدكتوراه ، وقد زاده إذن الجامعة له بالزواج جدّاً وكداً ونشاطاً ، حتى كان العام الأول لخطبته غريباً حقاً ، كلف فيه نفسه وخطيبته من الأمر أعسره وأشدّه مشقة .

ولم ينس الفتى قط ولم تنس صاحبه ، أنهما كانا يخرجان بين حين وحين في أيام الآحاد من باريس يطلبان التزهة والتروض ، فلم يخرجوا قط وحدهما وإنما صحبهما دائماً كتاب من هذه الكتب الثقيل التي ترهق القارئ فيها من أمرهم عسراً ، والذين يعرفون كتب أوجست كونت ويقدرّون ما فيها من العسر الذي يتصل بمعانيها وألفاظها وأسلوبها يرحمون هذين الخطيبين اللذين كانا يختلفان إلى هذه الغابة أو تلك من الغابات التي تحيط بباريس ، فيأويان إلى ظل شجرة من أشجارها ويأخذان في هذه القراءة العسيرة الشاقة المرهقة التي لم يكن بينها وبين ما كان يملأ قلوبهما من الحب والأمل سبب قريب أو بعيد .

وقد أقبلت بوادر الصيف من ذلك العام وجعل الفتى يستعد للامتحان ، ثم دفع إليه في شهر يونيو فلم يتردد ولم يتلکأ ، وإنما أقدم في عناد أى عناد . لم يكن

والتقاً بنفسه ولا مطمئناً إلى نتيجة هذه المغامرة التي يقدم عليها ، ولكنه كان يقول لنفسه إن أتيح لى النجاح فرمية من غير رام ، وإن كسب على الإخفاق فما أكثر الذين يخفقون !

وكان مزماً إن ظفر بالنجح أن يبرق به إلى الجامعة ، وإن كسب عليه الإخفاق أن يكتمه ويجعله سراً بينه وبين نفسه إن أمكن أن يكتم الإخفاق فى الامتحان ، ومن حوله زملاؤه المصريون يرقبونه رفاقاً به مشجعين له عاطفين عليه . وقد أتيح له النجاح . . وكان الأستاذ الدكتور صبرى السوربونى هو الذى أقبل ذات مساء فرحاً يكاد يخرج الفرح عن طوره ، مكثوداً يكاد يقطع الإعياء نفسه لشدة ما جرى بين السوربون وبين بيت الفتى ، ولشدة ما أسرع فى صعود السلم إلى بيت الفتى فى الطبقة السادسة . فلم يكده يفتح له الباب حتى أعلن لمن فتحه له أن زميله قد ظفر بدرجة الليسانس ، ولم يدخل وإنما رجع أدراجه ولم يرد أن يستريح . وكان الزميل الكريم قد تقدم للامتحان ، ولم يكده ينظر فى النص اللاتينى حتى طواه وقدم صحفه البيضاء وانصرف ضاحكاً متمثلاً ببيته اللاتينى ذاك الذى يصور اليأس والقنوط . فكان رائعاً حقاً أن يكون ابتهاجه بفوز زميله بهذه الدرجة العسيرة أملك له وأشد استتاراً به من إخفاقه هو فى الامتحان !

والتى نبأ النجاح إلى الفتى ، فلم يصدقه حتى صحبته خطيبته إلى السوربون وقرأت له اسمه بين أسماء الناجحين ، ثم لم تعد به إلى البيت حتى حجزت أمكنة للأسرة كلها فى بيت مولير تكافئ بذلك صديقها وخطيبها على هذا النجاح الذى لم يكن مرتقباً .

وأصبح الفتى من غده فابرق إلى الجامعة ، ولم يمض يومان حتى أبرقت إليه الجامعة تهنئة وترسل إليه مكافأة قدرها عشرون جنيهاً . فى ذلك اليوم قرر الخطيبان أن يتما زواجهما قبل رحلة الصيف إلى الجنوب .

الفصل السادس عشر

طلب تأجيل الامتحان للزواج!

وكان أمر الفتى فى عامه الدراسى ذاك عجباً كله ، فهو لم يتبها لامتحان الليسانس وحده على ما فيه من عسر ومشقة ، وإنما جعل يعدّ رسالته للدكتوراه عن فلسفة ابن خلدون الاجتماعية ، فقرأ لذلك ما شاء الله أن يقرأ فى اللغتين العربية والفرنسية ، وترجمت له نصوص أخرى من لغات أوروبية مختلفة ، ثم أخذ فى إملاء رسالته ، يقول هو وتكتب صاحبه ، وتقوم فى أثناء ذلك ما يعوجّ من لغته الفرنسية . ولا يكاد يفرغ من إملاء فصل من فصول هذه الرسالة حتى يعيد قراءته ثم يعرضه على أستاذه المشرق الفرنسى كازانوف ، فإذا أقرّه أخذ فى إملاء الفصل الذى يليه . ولم تكن الجامعة قد فرضت عليه هذه الرسالة ، بل لم يكن بين هذه الرسالة وبين برنامجه الدراسى سبب . فهو قد أرسل ليدرس التاريخ ، وكلف الحصول على درجة الليسانس ، وتطوع هو بهذه الرسالة لأنه سمع دروس الاجتماع التى كان يلقيها الأستاذ دوركم ، فشغف بهذا العلم أى شغف ، وأراد أن تكون له مشاركة فيه ، وأن يشرف الأستاذ على هذه المشاركة . فاتفق معه على موضوع الرسالة ، وعلى أن يكون هو مشرفاً عليها من الناحية الفلسفية ، وأن يشاركه فى الإشراف مستشرق يحسن العلم بالشئون العربية والإسلامية فكان كل فصل من هذه الرسالة يقرؤه أستاذان ، يقرؤه الأستاذ المشرق أولاً ثم يقرؤه الأستاذ دوركم بعد ذلك . ولما استقام أمر هذه الرسالة للفتى كتب إلى الجامعة ينبئها بما صمم عليه ،

وبأن هذا لن يغير من برنامجه المرسوم شيئاً ، بل ينشأ بأنه يزعم أن يضيف إلى هذا البرنامج المرسوم شيئاً آخر : يريد - إن ظفر بالليسانس - أن يظفر بالإجازة التي تليه ، وهي دبلوم الدراسات العليا . واستأذن الجامعة في أن يتبأً لنيل درجة دكتوراه الدولة في التاريخ ، على أن ذلك يستلزم أن تمتد إقامته في أوروبا أربعة أعوام بعد حصوله على الليسانس والدبلوم .

فكثبت إليه الجامعة تأذن له بنيل الدبلوم إن استطاع بعد الليسانس ، وتعفيه من دكتوراه الدولة في التاريخ ، لأنها تطيل إقامته في أوروبا وتكلف الجامعة من النفقات أكثر مما تطيق .

ثم أذنت له بتقديم رسالته عن ابن خلدون لنيل دكتوراه الجامعة ، وذكرته بالعهد الذي قطعه على نفسه قبل أن يسافر من مصر وهو ألا يقدم رسالة إلى جامعة أجنبية مهما يكن موضوعها إلا بعد أن تقرأها الجامعة المصرية وتأذن في تقديمها . وكان الصديق الكريم الدكتور منصور فهمي هو الذي اضطر الجامعة إلى أن تأخذ طلابها في أوروبا بأن يعطوا على أنفسهم هذا العهد .

والناس لم ينسوا بعد ما أثارت رسالة الدكتور منصور التي حصل بها على الدكتوراه من ضجيج وعجيج أثارا مسخط الهيئات الرسمية أولاً ، وسخط الرأي العام بعد ذلك ، واضطر الصديق الكريم إلى أن ينأى عن مصر قريباً من عام ، ولا يعود إليها إلا حين اضطرت الحرب إلى أن يعود . وحيل بينه وبين التعليم في الجامعة أعواماً ، حتى إذا كانت الحركة المصرية سنة تسع عشرة وتسعمائة وألف ، وما نشأ عنها من الأحداث ومن تحرر العقول ، أذن له بما كان ينبغي أن يؤذن له فيه منذ أتم درسه في فرنسا . وكان ثروت باشا رحمه الله هو الذي أذن له في ذلك .

ولم ينس الفتى مساء يوم من الأيام جلس فيه بين زملائه إلى بعض الأساتذة في الجامعة حين كان طالباً ، وإنه لمصغ إلى الأستاذ وإذا يدُ تلمسه مساً رفيقاً ثم

تحاول إقامته مكانه ، فليفت فينبته صوت بأن الذى يريد أن يقيمه هو علوى باشا ، فيستجيب الفتى لهذه اليد وهو يشفق فى نفسه من بعض الشر . فهو قد أقيم مرة من درسه فى الأزهر مع صاحبين له ليقدم للمحاكمة أمام شيخه الأكبر الشيخ حسونة رحمه الله . وقد سأل الفتى إلى من سيقدم ، وفيه يمكن أن يحاكم هذه المرة . ورأى الفتى نفسه قد أجلس على كرسى وقيل له إنك أمام مجلس إدارة الجامعة وإن المجلس يريد أن يسألك عن بعض الأمر . وإذا صوت رقيق يتحدث إليه فى رفق ، فينبته أولاً باسمه عبد الخالق ثروت ، ويسأله بعد ذلك عن حكم الدين فى أشياء تليت عليه من رسالة لطالب من طلاب الجامعة فى أوروبا .

قال الفتى : فإنه لا يملك الإفتاء فى أمور الدين .

قال محدثه : فإنا نريد أن نعرف رأيك .

قال الفتى وهو ييسم فى شيء من غضب ساخر : كنت أظن أننى فى الجامعة حيث لا يحاسب الناس على آرائهم . فإذا أنا أراهم فى الأزهر لا أسأل عن رأى نفسى وإنما أستفتى فى رأى غيرى من الناس .

قال صوت غليظ : رده يا علوى باشا إلى درسه فلن نأخذ منه شيئاً .

ورد الفتى إلى درسه لم يصحبه فى عودته علوى باشا وإنما صحبه خادم من خدم الجامعة .

ومنذ أثار الدكتور منصور ذلك الضجيج أقامت الجامعة نفسها رقيباً على رسائل طلابها ، وأخذت عليهم العهد ألا يقدموا رسائلهم إلى الجامعات الأجنبية حتى تأذن لهم هى فى ذلك بعد أن تقرأ الرسائل وتقرها . فلما استأذنها الفتى فى تقديم رسالة عن ابن خلدون ذكرته بعهد ذاك ، فوفى به وأرسل نسخة من الرسالة بعد أن أتمها ، وأحالها مجلس الإدارة إلى الأستاذ أحمد لطفى السيد فقرأها ورضى عنها وأذنت الجامعة فى تقديمها إلى السوربون .

ولم ينقضى شهر يوليو من ذلك العام حتى كان القتي قد نجح في اللسانس من جهة ، وأذنت له السوربون في طبع رسالته توطئة لمناقشتها بعد الصيف . وقد تحفّفت القتي من عشرين ثقلين . . عبء اللسانس وما فيه من امتحان اللغة اللاتينية ، وعبء الرسالة وما فيها من رقابة الجامعة والإذن في تقديمها . على أن فوزه باللسانس لم يكن كاملاً ، فهو قد نجح في الامتحان التحريري نجاحاً حسناً ، ولكنه كان قد شق على نفسه بالاستعداد لهذا الامتحان وكتابة الرسالة وهو بعد ذلك مشغول متصل التفكير في زواجه الذي أذنت به الجامعة والذي كان يجب أن يتم في ذلك الصيف .

فخادع القتي نفسه شيئاً ، وقرر أن يرجئ الامتحان الشفهي إلى الدور الثاني في أول العام الدراسي ، وما هي إلا أن يعرض نفسه على طبيب فيشهد كتابة بأنه مكثود الأعصاب محتاج إلى الراحة ، ويقدم هذه الشهادة إلى السوربون فتؤجل ما بقي من امتحانه إلى شهر نوفمبر ، ويفرغ القتي لنفسه وخطيئته ، وما كان يعنيه من أمر الزواج .

فإذا كان اليوم التاسع من أغسطس من ذلك العام ، أصبحا زوجين حين انتصف النهار ، وتركا باريس إلى الجنوب حين أقبل الليل . ولم يفرغا مع ذلك لحياتهما الجديدة في أثناء الصيف ، وإنما استقرا في مدينة هادئة من مدن الجنوب ، وأقبلوا فور استقرارهما على ما لم يكن بدّ من الإقبال عليه وهو الاستعداد للامتحان الذي يجب أن يؤدي بعد شهرين .

وكان الاستعداد عسيراً حقاً . فلم يكن بدّ لطالب اللسانس في التاريخ من أن يكون مستعداً بعد نجاحه في الامتحان التحريري لأن يسأل فيما يريد الأستاذة أن يسأله فيه من تاريخ العصور القديمة وتاريخ القرون الوسطى والتاريخ الحديث والتاريخ المعاصر والجغرافيا والفلسفة ولغة أوربية غير اللغة الفرنسية . وحسبك بهذا

كله عبثاً ثقيلاً وعناء طويلاً . وحسبك به أوبالاستعداد له نعيماً يلائم حياة عروسين قد آتما زواجهما منذ أيام !

وهما مع ذلك يقبلان على هذه المحنة الثقيلة لا يضيقان بها ولا ينفران منها ، وإنما يصبحان في التاريخ ويمسيان في الجغرافيا ويلمان بالإنجليزية بين ذلك ، ويتركان أمر الفلسفة إلى الله وإلى ذاكرة الفتى ، وما يمكن أن يكون قد استقر فيها مما سمع في السوربون أثناء العام .

وينقضى الصيف ويعود الزوجان إلى باريس ، ويقبل صاحبنا على الامتحان مشفقاً منه أعظم الإشفاق ، مروّعاً به أشد الروع لا يخاف التاريخ القديم ، وإنما يخاف أشد الخوف أساتذة التاريخ الحديث والتاريخ المعاصر ، ولا يكاد يذكر الجغرافيا حتى يُجنّ جنونه ، فقد كان واثقاً بأنه مخفق فيها من غير شك . وقد كتب عليه أن يرضى في يوم من أيام الامتحان كل الرضا مصباحاً وأن يسخط فيه كل السخط ممسياً .

وأقبل من ضحى ذلك اليوم على أستاذ تاريخ القرون الوسطى وكان من أعظم أساتذة السوربون قدراً ، وهو الأستاذ شارلى ديل . فإذا الأستاذ قد كتب على أوراق صغيرة أسئلة كثيرة وضعها أمامه ، وجعل الطلاب كلما أقبل واحد منهم على الأستاذ يرمقونه ويرقبون ما يسعفه به الحظ . ويقبل صاحبنا ترافقه زوجه ، فإذا أخذت ورقة ودفعتها إلى الأستاذ نظر فيها ثم ابتسم ثم قال في صوت عذب : لقد أسعدك الحظ بمرافقة هذه الآنسة . حدثني إذن عن الإمبراطورية العربية أيام بنى أمية ، وما أرى إلا أنك تعرفها خيراً مما أعرفها .

واندفع الفتى في حديثه لا يلوى على شيء حتى وقفه الأستاذ قائلاً : حسبك فقد ظفرت بالدرجة العليا .

في ذلك اليوم لم يعد الزوجان إلى البيت ليصيبا غداًهما ، وإنما ألح الفتى

على صاحبه في أن يرقها عن نفسها بتناول الغداء في مطعم من مطاعم الحي اللاتيني ، يجدان فيه من لين الطعام ما لم يكن مقدراً أن يجدها إن عادا إلى البيت . وكانت صاحبه تكره له أن يسرف فيما يبقى له من مرتبه بعد أداء ما عليه فيه من الحق ، فامتنعت عليه وألحت في الامتناع ، ولكنه ما زال بها حتى استجابت له . فأصابا في ذلك اليوم غداء قلما كانا يصيبان مثله في سائر أيامهما .

وعادا بعد ذلك إلى السوربون ، وإن قلب الفتى ليخفق فرقاً وقلقاً ؛ وكيف لا وهو مقبل على امتحان الجغرافيا بعد قليل ؟ وكان قد قدر في نفسه أن الأستاذ الذي سيمتحنه لن يراه مقبلاً عليه حتى يرفق به ويعرف أن مثله لا ينبغي أن يسأل إلا فيما يفهمه العقل وتحفظه الذاكرة بدون أن يحتاج إلى الإيصار . يسأله في الجغرافيا السياسية أو الاقتصادية أو البشرية ولا يسأله في الجغرافيا الطبيعية مثلاً . ولكن الأستاذ بدعه فيسعى إليه ويجلس بين يديه ، ويقول الأستاذ في هذه المداعبة الرفيعة التي يتكلفها المتحنون عادة : مسيوحين ، صف لي مجرى نهر الرون .

ويسمع الفتى هذا السؤال فيسرع إليه الوجوم ، ولكن العناد يسبق الوجوم إلى عقله وقلبه جميعاً . وإذا هو يرفض الإجابة عن هذا السؤال في صوت لا تردد فيه ولا اضطراب .

قال الأستاذ متلطفاً : فإن من الحق عليك أن تجيب حين تسأل .

قال الفتى : ولكني لن أجيب .

قال الأستاذ : فقد اكتفيت .

ودعا طالباً آخر .

فانصرف صاحبنا محزوناً مدحوراً ، مستيقناً أنه قد أخفق في الامتحان ، وأن نجاحه في أول الصيف قد ذهب هباء ، مشفقاً في الوقت نفسه على صاحبه من هذا الحزن الذي سيسعى إليها من غير شك . ولكن صاحبه تخرج به من هذه الغرفة

مترفة به قائلة له في ابتسامه عذبة : وما رأيك في فئجان من القهوة تنبأ به للقاء
أستاذ الفلسفة ! وقال : وفيهم لقاء هذا الأستاذ وقد ذهب الامتحان كله هباء ؟
قالت متضاحكة : لا عليك . فقد كان هذا الممتحن غليظ الطبع قليل الحظ
من الذوق .

وما زالت به حتى سقته القهوة . ثم عادت به إلى السوربون ، فلقى أستاذ الفلسفة
وسمع منه وقال له غير محقق في نفسه شيئاً مما سمع أو مما قال .
وراحا إلى بيتها وهو يفسر اليأس ويظهره . وهي تظهر الأمل ، والله يعلم
ما كانت تفسر .

وتكلف صاحبنا أن يشغل نفسه عن التفكير في الامتحان بالتفكير في مناقشة
الرسالة التي تم طبعها وقدمت إلى السوربون ، والتي سيحدد لمناقشتها فيما كان يقدر
موعد قريب .

ولم تتحدث إليه صاحبته في أمر هذا الامتحان ، وإنما جعلت تتحدث إليه
في أشياء كثيرة ليس بينها وبين السوربون وعنايتها صلة ، ثم تقبل عليه ذات يوم
فلا تكلمه ولا تلتق إليه تحيتها وإنما تقبله ثم تهمس في أذنه : لقد نجحت !
ولم يصدق الفتى ما سمع حتى أنبأته بأنها عائدة من السوربون حيث أعلنت
أسماء الناجحين وفيها اسمه .

وعلم الفتى بعد ذلك أن الأستاذ ريمونجون أستاذ الجغرافيا لم يكن غليظ الطبع
ولا قليل الحظ من الذوق ، فلم يمنحه الصفر الذي كان يستحقه ، وإنما منحه درجتين
اثنتين ليخصمه من الإخفاق إن أتبع له النجاح في غير الجغرافيا من مواد الامتحان .
وتريد الظروف بعد سنين أن يعقد في مصر مؤتمر للجغرافيا ، وأن يكون هذا
الأستاذ من الذين مثلوا وطنهم في هذا المؤتمر ، وأن يلقاه صاحبنا في حفلة من حفلات
الشاي التي تكثر حول المؤتمرات ، فإذا قدم إليه صافحه وأطال النظر إليه وإلى

صاحبه ثم قال متضحكاً : يخيل إلى أنى رأيتك !

قال الفتى مغرقاً في الضحك : نعم رأيتنى ، وكدت تضع على درجة اليسانس .

قال الأستاذ : الآن ذكرتك . . ولعلك راضى عني ، لأنى لم أعطك الصفر الذى

كنت له أهلاً !

ولم يضحكا وحدهما ، وإنما ضحك معهما من كان حولهما من الناس .

وكذلك خلص الفتى من مشكلات اليسانس ، وأقبل على الرسالة تيبهاً لمناقشتها

مستريح القلب هادئ النفس راضى الضمير ، ولكنه لم يلبث أن روع ب وفاة

الأستاذ دوركيم المشرف الفيلسوف على رسالته . وكان الفتى لأستاذه محباً وبه معجبة

إعجاباً يوشك أن يبلغ القتون ، فأدركه للخطب فيه حزن عميق . ولكن للحياة

حقائقها وتبعاتها . وليس بدّ لهذه الرسالة من أن تناقش ، وليس بدّ لمناقشتها من

فيلسوف متخصص فى الاجتماع .

وقد استطاعت السوربون أن تندب لمناقشة الفتى فى رسالته أستاذاً من أساتذتها

كان من تلاميذ الأستاذ الفقيه وهو الأستاذ بوجليه . وكذلك تم الاستعداد للمناقشة ،

ولكن الدكتوراه الجامعية فى فرنسا لا يكفى فيها أن تقدم الرسالة وأن تناقش ، بل

يجب أن يناقش الطالب قبل ذلك فى موضوعين يختاران له قبل اليوم الموعود ليتبهاً

للخوض فيها .

ويتصل الفتى بأساتذته الذين سيبحثونه ليعرف منهم هذين السؤالين . فأما

الأستاذ المستشرق فلم يقترح شيئاً واكتفى برسالة الطالب عن ابن خلدون . وأما

الأستاذ الفيلسوف فأقترح على الفتى موضوعاً رآه فى أول الأمر عسيراً أشد العسر ،

ثم لم يلبث أن رآه يسيراً كل اليسر بعد أن عرف الموضوع الثانى الذى اقترحه

أستاذ التاريخ . اقترح الأستاذ الفيلسوف : « علم الاجتماع كما يتصوره أجوست

كونت » ، واقترح أستاذ التاريخ - وكان من مؤرخى الرومان وهو الأستاذ جوستوف

بلوك - ه القضايا التي رفعت على حكام الأقاليم كما يصورها بلبينوس الشاب في رسائله .

وقال الأستاذ وهو يلقى هذا الموضوع إلى الفتى : وأريد أن أناقشك في النصوص فلا تكف بفهم التاريخ .

في ذلك اليوم عاد الفتى إلى أهله يرعد من الخوف والسخط جميعاً . كان يظن أنه قد فرغ من اللغة اللاتينية وعناثها ، وإذا أستاذ التاريخ ذاك يرده إليها ويفرض عليه أن يدرس طائفة من رسائل ذلك الكاتب اللاتيني القديم .

وأقبل الفتى على رسائل ذلك الكاتب فقرأها كلها مترجماً إلى الفرنسية أولاً . واستخرج منها الرسائل التي تمس موضوعه فعاد إليها يدرسها في نصوصها اللاتينية درساً دقيقاً عميقاً ، لأنه كان يعرف الأستاذ ، ويعلم أنه لا يجب المزاح ولا يكتفى بالقليل . ولم يتردد الفتى في امتحان قط إلا في هذا الامتحان حين أخذ الأستاذ يناقشه في هذه الرسائل ، ونسى حكام الأقاليم وقضاياهم ، ولم يحفل إلا بالنص اللاتيني من حيث هو نص أدبي يجب فهمه أولاً وذوقه ثانياً وتحليله ونقده بعد ذلك .

ولولا فضل من شجاعة واستحياء من الرفاق ومن زوجه التي كانت تشهد الامتحان ومن سائر النظارة لاصططكت أسنانه ذعراً وهلعاً . ولكنه ثبت للخطب على كل حال ، وإن رأى الأساتذة والنظارة أن فرائضه كانت ترتعد ، وأنه كان شديد الاضطراب ، وثابت نفسه إليه حين سكنت عنه أستاذ التاريخ وأخذ أستاذ الفلسفة في مناقشته وجرت ريح الامتحان له رخاء حتى رفعت الجلسة .

دخلت اللجنة للمداولة وعادت بعد لحظات فأعلن إليه رئيسها ، وهو أستاذ التاريخ ، أن الكلية ترشحه للدرجة الدكتوراه مع مرتبة الشرف الممتازة ومع تهنئة اللجنة .

ولأول مرة سمع الفتى تصفيق النظارة من الفرنسيين لشخصه المتضائل الضعيف .

وعاد إلى أهله جذلان فرحاً ، وظنّ أن قد حطت عنه أثقال الدراسة ، وأن ما بقي
له منها لن يكون شيئاً ذا بال .

ولكن الأيام كشفت له عن أنه كان مغالياً في تفاؤله بل مسرفاً في الغلو .
فقد بقي عليه أن يظفر بدبلوم الدراسات العليا ، وأراد حظه أن يعدّ رسالته لهذا
الدبلوم بإشراف أستاذ التاريخ ذلك الذي أرهقه من أمره عسراً .

الفصل السابع عشر

يوم سقطت القنبلة على بيبي !

ولم يمهل صاحبنا نفسه بعد أن فرغ من امتحان الدكتوراه إلا أياماً قليلة ، ثم أقبل على درس أستاذ التاريخ ذاك كما تعود أن يفعل منذ أقام في باريس ، وكان على هذا الدرس حريصاً ولصاحبه مجبياً ، بل كان إعجابه بصاحب هذا الدرس عظيماً ، فلما انتهى الأستاذ من درسه سعى إليه صاحبنا خزياناً وجلاً ، وأنباه بأنه يودُّ لو أذن له في أن يهبي بإشرافه رسالة في التاريخ القديم يتال بها دبلوم الدراسات العليا .

وقد قبل الأستاذ طلب تلميذه أحسن قبول ، وضرب له موعداً بعد درس الغد ليتحدث معه في موضوع هذه الرسالة . وانصرف الفتى راضياً مشفقاً . راضياً عن العمل مع هذا الأستاذ العظيم ، مشفقاً من مشقة هذا العمل . فقد كان الأستاذ معروفاً - على حبه لتلاميذه - بالشدّة عليهم وتكليفهم من الأعمال أشقها وأشدّها عسراً ومحاسبتهم بعد ذلك حساباً لا رفق فيه .

ولقي الفتى أستاذه من الغد فقال له متفاحكاً : لقد وجدت لك موضوعاً قيماً حقاً ، لأنه سيتيح لك من القراءة ما ستنعم به أحسن النعم موقعاً في النفوس . قال الفتى متشوقاً : وما ذاك ؟ !

قال الأستاذ : سندرس القضايا التي أقيمت في روما على حكام الأقاليم الذين أهانوا جلال الشعب الروماني وغضبوا من شرفه ، كما صوّرها المؤرخ العظيم تاسيت .

وأؤكد لك أنك ستسعد بقراءة هذا المؤرخ كما لم تسعد قط بقراءة مؤرخ أو أديب .

ثم أحصى له طائفة من الكتب يجب أن يقرأها ، وطائفة أخرى يجب أن يرجع إلى بعض فصول فيها . ولم يستطع صاحبنا أن يناقش الأستاذ أو يجادله في هذا الموضوع العسير ، وإنما سمع وأطاع ، وانصرف قلقاً مستخذياً .

ثم فكر حين خلا إلى نفسه في هذه الكتب التي ينبغي أن يقرأها أو يراجع فصولاً فيها ، فرأى أنه لا يستطيع أن يستعيرها ، لأن مثل هذه الكتب لا تعار من مكتبة الجامعة لكثرة حاجة الطلاب إليها . وليس له بد إذن من شرائها ، وفي شرائها المعضلة الكبرى . فثمنها لا يقل عن المرتب الذي يتقاضاه أثناء شهرين كاملين !

وكتب إلى الجامعة يستعيرها على شراء هذه الكتب ، فأبت عليه ، وكانت الجامعة شديدة البخل على طلابها ، تكرمها ظروفها المالية على ذلك إكراهاً . فهي لم تكن تعينهم على ما يعرض لهم من المرض ، ولا على ما يحتاجون إليه من الكتب ، وإنما كانت تعطيتهم مرتباتهم وأجور ما يحتاجون إليه من الدروس الخاصة إذا تبينت أن ليس لهم من هذه الدروس بد . ثم تخلى بينهم وبين حياتهم يصنعون بها ما يريدون ، أو تصنع هي بهم ما تريد . وعلى الطلاب مع ذلك أن يثبتوا جذهم في الدرس وتقدمهم فيه . فإن ثبت لها تقصير أو قصور فليس بد للطلاب من أن يعود إلى مصر ويوفر ما تنفقه الجامعة عليه من المال .

وقد راجع صاحبنا الجامعة في أمر هذه الكتب فأذنت له - بعد خطوط - في أن يشتريها ويتضع بها على أن تكون ملكاً للجامعة ترد إليها بعد عودته إلى مصر . وكذلك أخذ يتهاى لهذا الموضوع الخطير . وأى شيء أخطر بالقياس إلى مصرى مثله لم يعرف اللاتينية إلا بأخرة ، ولم يسمع في مصر إلا دروس الأزهر

في علومه الموروثة ودروس الجامعة التي ليس بينها وبين تاريخ اليونان والرومان صلة -
 أي شيء أخطر بالقياس إلى مصرى مثله من العكوف على هذا المؤرخ الروماني
 العظيم العسير يقرؤه ويحصى ما فيه من أخبار هذه القضايا ، ثم يفهم هذه القضايا
 من نواحيها القانونية الخالصة ، ثم يعرضها بعد ذلك عرضاً واضحاً مستقيماً ؟
 لقد أحس في نفسه شيئاً من الندم على أنه لم يختر لزمائله موضوعاً في التاريخ العربي
 الذي يحسنه والذي لا يكلفه قراءة في اللاتينية ولا فيما يشبه اللاتينية ، ولكنه قد
 ورط نفسه في هذا الموضوع ، وليس له بد من أن ينفذ من مشكلاته ، مهما يكلفه
 ذلك من جهد أو عناء .

وإنه لما بدأ في قراءته تلك العسيرة ، إذا حدثُ يحدث ذات ليلة فيقطع
 هذه القراءة فجأة ، ويضطره إلى أن يترك باريس ، ويفر بنفسه وبزوجه إلى جنوب
 فرنسا ، طلباً للأمن واجتناباً للخطر . وكان ذلك حين انتصفت ليلة من ليالي فبراير
 أو كادت تنتصف . وكان كل شيء هادئاً من حول صاحبتنا ، وكان قد انصرف
 عن القراءة وأوى إلى مضجعه ، وأخذ النوم يسعى إليه أو أخذ هو يسعى إلى النوم ،
 ولكن التذير بالغارة الجوية يوقظ أهل البيت جميعاً ، وصاحبتنا شجاع لا يحفل
 بالغارة ولا يريد أن يظهر أهل البيت منه على ذعر أو شيء يشبه الذعر . فهو يأني
 أن ينهض من مضجعه ساخراً من الغارة والمغيرين . وما أكثر ما سمع أهل باريس
 هذا التذير ! وما أكثر ما اهتم له المهتمون ، وسخر منه الساخرون ، وانجلت غمرته
 عن باريس دون أن تلي منه كيداً ! فما يمنع هذه الغارة أن تكون كغيرها من سابقتها ؟
 وصاحبتنا معتد بنفسه معتز بشجاعته ، يرى أهل البيت من حوله يتهاونون للهبوط
 من طابقهم السادس ليأووا إلى مخبئهم ذاك ، وهولاء في مضجعه لا يريم ،
 ولكنه يسمع فجأة صوتاً مروّعاً ، وينظر فإذا هو يهبط مع الهابطين مسرعاً ،
 لا يحفل بما يمكن أن يلقاه من عقبات ، ولا يشوب إلى نفسه إلا بعد أن استقر في

مجلسه من المخأ بين اللاجئين إليه من أهل الحى ، وهو مستخذ فى نفسه ، ومستخذ من أهله ، ولكن ماذا يصنع وقد كانت الغريزة أقوى من عقله وإرادته جميعاً ؟ وتنجلى الغمرة ، ويأوى الناس إلى مضاجعهم ، فإذا أصبحوا رأوا شراً عظيماً ، فقد سقطت القنابل فى الحى اللاتينى نفسه ، ودمرت أبنية قريبة من الدار التى كان يسكنها صاحبنا ، وهوى حس آثار هذا التدمير فى طريقه مصباحاً إلى السوربون ، ويسمع من أنبائه الشئ الكثير . ولم يخطر له أن فى هذا الحادث ما يضطره إلى ترك باريس والهجرة إلى الجنوب . ولكن ظروف زوجه تفرض عليه ذلك بأمر الطبيب . فيهاجر معها إلى مونبلييه مقدرين أن يقيما فيها إلى أن يصل الطفل الذى كانا ينتظرانه ، ثم يعودا بعد ذلك إلى باريس .

وهم صاحبنا بعد أن استقر فى مونبلييه أن يدرس الحقوق ويتخرج فى القانون ، يبدأ الدرس فى فرنسا ويتمه فى مصر بعد أن يعود إليها ، ولكن إعداد رسالته تلك شغله عن ذلك ، وما أكثر ما لام نفسه وشق عليها فى اللوم بأنه لم يتم ما حاول من دراسة القانون ! فقد ألت به فى حياته محن وخطوب .

وكان ينظر فىرى نفسه مسؤولاً عن أسرة فيها صبيان بريثان لم يخاصما السلطان ولم يثيرا غضبه ، وعن زوج بريثة غريبة لا شأن لها بما كان يحدث فى مصر من الأحداث ، ويرى نفسه مع ذلك اضطر إلى شئ يشبه العجز عن رعاية هذه الأسرة والقيام بحققها عليه فى تلك الأيام . وكان يذكر رغبته فى درس القانون ، وكان يقدر أنه لو فعل لاستطاع أن يتجنب التبطل وأن يعصم هذه الأسرة مما كانت تتعرض له من البؤس والضيقة . ولكن هذا حديث لم يأت وقته بعد .

أقبل الفتى إذن على درسه ، وأقبل فى الوقت نفسه على درس اللغة اليونانية ، وشاركه زوجه فى هذا الدرس ، فكانت حياتهما فى مونبلييه راضية حقاً ، فيها نعم العقل بهذا الإمعان فى الدرس والأخذ فى كل يوم بسبب جديد من أسباب المعرفة ،

وفيهما نعم الأمل بانتظار هذا الطفل الذى كان يسعى إلى الحياة فى أناة ورفق .
 وفيها نعم الرضا بالقليل والقناعة بالرزق الذى مهما يكن مقترأ فيه فقد كان يقيم
 الأود ويعصم من الحاجة ويرضى الزوجين عن نفسيهما ، لأنهما يحستان التدبير
 والاحتمال . وكان ربما تعرضا لبعض الهم حين يوشك الشهر أن ينقضى ، ويوشك
 ما بين أيديهما من المال أن ينفد ، فيثبتان لذلك فى صرامة لا تعرف اللين وشدة
 لا تعرف الدعة حتى تنجلي عنهما الغمرة ويعود إليهما اليسير العسير مع أول الشهر إن
 جاز أن يوصف اليسير بأنه عسير .

وكان الفتى قد أرسل نسخاً من رسالته عن ابن خلدون إلى صديق له فى مصر
 بقيت له بعد أن أخذت السوربون خمسين ومئة نسخة ، وأخذت الجامعة عشرين
 نسخة ، وأهدى إلى بعض الرفاق والأصدقاء عدداً آخر من النسخ ، وبقي له نحو
 مئة نسخة من هذه الرسالة ، فأرسل إلى صديقه ذاك - رحمه الله - ليصرف فيها كما
 يحب . ومضى على إرسال هذه النسخ وقت غير قصير حتى نسيها الفتى ، ولكنه يتلئق
 ذات ضحى كتاباً من صديقه ذاك ومعه حوالة على أحد المصارف بمقدار من المال
 لا بأس به كاد يبلغ عشرين جنيهاً .

ما كان أسعد ذينك الزوجين بهذا الكتاب ، وبما حمل إليهما من معونة ،
 كانا فى أشد الحاجة إليها ! ولا سيما أنه قد قرب مقدم الطفل المنتظر ، ولا بد
 من التهيؤ للقائه ، ومن لقائه حين يقبل فى إكرام له وعناية به وحفاوة تلائم ما كانا
 يجدان فى مقدمه من السعادة . وكان ربما أدركهما حزن عميق يخفيه كل منهما
 على صاحبه رفقاً به وإشفافاً عليه . فكانت هذه المعونة الطارئة منقداً لهما من هذا
 العذاب .

وفى يوم من أيام شهر يونيو أقبلت أمينة مع الصبح ، واختلط صياحها بغناء
 الطير المستيقظة . فكان لهذه الموسيقى الحلوة موقع أى موقع فى قلب الزوجين أنساها

أوسلاهما عما وجدا في ليلتهما تلك من رَوْع وما تعرّضا له من هول .

ولم تجد أمينة أبويها حزينين ولا مهتمين ولا مضيقاً عليهما في استقبال زائرهما العزيز ، فقد أتاح لها ابن خلدون - رحمه الله - من السعة ما مكّنها من أن يلقيا ابنتهما كأحسن ما يكون اللقاء .

وانقضى الصيف ثقيلًا طويلًا يضطرب فيه الزوجان بين السعة في أول الشهر والضيق في آخره ، ولكنهما يستعنان على السعة والضيق جميعاً بتنشئة أمينة من جهة ، والجلد في إعداد الرسالة ودرس اليونانية من جهة أخرى . ولم يقبل شهر سبتمبر حتى عاد الزوجان ومعهما جوهريتهما إلى باريس .

وكان صاحبنا يقدر أنه سيفرغ الفراغ كله لرسالته إذا استقر في باريس ، ليلقى أستاذه من أول العام الجامعي مستعداً للتحدث اليه بما قرأ وما فهم وما يريد أن يفعل ، وليتلقى منه ما يمنحه من التوجيه والإرشاد .

ولكنه لا يكاد يبلغ باريس حتى يُصَرَّف عن الرسالة صَرَفًا عنيفاً ، وبشغل عنها شغلاً متصلاً أكثر من شهرين . فهذا رفيق مصري من رفاقه في الدرس ، وصديق من أصدقائه قبل البعثة وبعدها ، قد ألم به مرض عصبي خطير ، وليس له في باريس من يرعاه أو يهتم لشأنه . وقد انتقلت إدارة البعثة الجامعية من باريس إلى لندن فلم يكن بد للفتى من أن يعنى بصديقه وزميله في الدرس ، ويقوم منه مقام مدير البعثة ، وهو يعرضهم على الطبيب بعد الطبيب ، ويكتب في شأنه إلى مدير البعثة مرة وإلى الجامعة في القاهرة مرة أخرى . وينفذ أمر الأطباء ، فينقل صديقه من باريس إلى حيث يستطيع أن يعيش خارج المدينة في الهواء الطلق والحياة الهادئة التي لا عجيج فيها ولا ضجيج . وهو مضطرب إلى أن يزوره بين حين وحين ، وقد يدعوم فجأة صاحب الفندق الذي يقيم فيه المريض فيسرع إليه ، ويسمع من أبناء صديقه ما يملأ قلبه لوعة وحزناً ، ويثير أمامه من المشكلات ما لا يعرف إلى النفوذ

منه طريقاً . وهو فى أثناء هذا كله يتلقى الرسائل المتناقضة من الجامعة ومن مدير البعثات ، ويتلقى المال القليل لينفق منه على المريض الذى كان يسرف فى الإنفاق ، ولم تكن حاجاته تنقضى ، ويتلقى فى الوقت نفسه من الجامعة مطالبته بتأدية الحساب الدقيق عما أنفق ، ولا تنجلي عنه هذه الغمرة حتى يتلقى أمر الجامعة بإعادة الصديق المريض إلى القاهرة .

وفى أثناء هذا كله تضع الحرب أوزارها ، وتعلن الهدنة ، ويبتهج الفرنسيون ونزلاء فرنسا بمقدم السلم . ولا يكاد صاحبنا يمضى فيها عاد إليه من الدرس بعد تلك المحنة فى صديقه الكريم عليه الأثير عنده حتى تأتى الأنباء من مصر فتصرفه مرة أخرى عن رسالته وإعدادها صرفاً عنيفاً . ولكنه لم يكن حزيناً ولا مروّعاً ، وإنما كان سعيداً يملأ القلب غبطة والضمير رضاء والنفس ثقة وإعجاباً . فقد جاءت الأنباء بأن مصر تطلب استقلالها إلى المحتلين المنتصرين .

ثم جاءت الأنباء بأن مصر تلقى من المحتلين عتاً أى عنت وجحوداً أى جحود ، وبأن بعض المصريين قد أخرجوا عنوة من وطنهم ، واتخذوا رهائن فى مالطة ، وبأن مصر قد غضبت لأبنائها واثارت بأعدائها .

فتقع هذه الأنباء كلها من قلب الفتى ومن قلوب زملائه الطلاب المصريين موقع الماء من ذى الغلة الصادى . ليس الأوروبيون وحدهم إذن هم الذين يشعرون غضباً للكرامة الوطنية وطموحاً إلى استقلال الوطن . بل إن مصر الإفريقية تثور هى أيضاً كما ثار الإنجليز والفرنسيون والأمريكيون وأمم غربية أخرى .

ما أوسع الآمال التى ملأت قلوب أولئك الطلاب الغرباء ! وما أعظم الكبرياء التى ملأت نفوسهم ! وما أكثر ما أضاعوا من الوقت فى أحاديث لا تنقضى عن هذا كله ! وما أكثر ما أعرضوا عن الدروس ليفرغوا لحديث الثورة والثائرين ! وكان صاحبنا مؤثراً للعزلة لا يلقى رفاقه المصريين إلا قليلاً . فقد كثر لقاءه

لم وخوضه معهم في أحاديث الثورة والثائرين منذ جعلت الصحف الفرنسية تنشر أنباء مصر وما يجري فيها من الأحداث .

ولكنه على هذا كله لم يهمل الرسالة ولم يعرض عن درس أستاذه المشرف عليها ، وإنما مضى في عمله حفيظاً به حريصاً على الجلب فيه ، كأن أنباء مصر قد زادت إقداماً على إقدام وجداً على جد . وهي على كل حال قد شوقته أشد التشويق إلى أن يتم درسه ويعود إلى مصر ليشهد الأحداث عن كتب ، ومن بدرى لعله يستطيع أن يشارك في بعضها مما يتاح له أن يشارك فيه .

ولم ينس صاحبنا قط كيف كان يتلقى قارئته مع الصبح ، فيغرق معها في قراءة الفقه المدني والفقه الجنائي والمدني الروماني في كتابي المؤرخ الألماني العظيم ممس . ولم يكن الفتى يصدق - بعد أن مضت على ذلك السنون - أنه قرأ هذه المجلدات الأحد عشر في وقت قصير على ما في قراءتها من العسر وكثرة ما في هذه المجلدات من التعليقات ومن النصوص اللاتينية .

وما أكثر ما كان يسمع للقارئة وقد حمل أمانة بين ذراعيه ليتيح لزوجها أن تفرغ لما كان ينبغي أن تفرغ له من شؤون البيت !

وما أكثر ما كان يملئ فصول هذه الرسالة وصيته بين ذراعيه يمشي بها في غرفته الضيقة مملياً وقارئته تسمع منه وتكتب عنه ! وربما طلبت إليه أن يريح نفسه من الإملاء ويريحها من الكتابة دقائق ، وأخذت منه الصبية فحملتها ومشت بها في الغرفة وغنت لما بعض ما يغني للأطفال . وأناحت له بذلك أن يجلس ويستريح وزوجها في أثناء هذا كله في مطبخها مقبلة على تهيئة الغداء أو العشاء .

وفي ذات يوم يقبل الرفاق فينبئون بأن بعداً - رحمه الله - وأصحابه سيصلون إلى باريس ، وأنهم يتهاون لاستقبالهم ، ويطلبون إليه أن يشاركهم في ذلك فيعتنر ، لأنه لا يحسن من هذه الأمور شيئاً .

ولكنه ينتظر حتى إذا استقر الوفد في باريس ذهب ذات ضحى إلى حيث كان أعضاؤه يقيمون ، فلقى سعداً - رحمه الله - بعد أن لقي رفاقه ، وفيهم أستاذه الرفيق به العطوف عليه أحمد لطفى السيد .

وفيهم صديقه المشجع له الذى طالما شمله بالعناية والرعاية حين كان طالباً في الجامعة . وكاتباً في الجريدة . ثم شمله بالعناية والرعاية حين كان عضواً في البعثة الجامعية بباريس وهو عبد العزيز فهمي رحمه الله .

وفيهم غير هذين الصديقين الكريمين آخرون كان يعرفهم بأسمائهم ، ثم اتصلت المودة بينه وبينهم بعد ذلك ، كما اتصلت الخصومة أيضاً بينهم وبينه بعد ذلك .

لقي هؤلاء جميعاً ومعه زوجته ، ثم أذن له في لقاء سعد ، وكان لسعد عنده دين منه الحياء من أدائه حين كان طالباً في الجامعة وأتيح له أن يؤديه بعد أن كاد يتم دراسته في باريس .

الفصل الثامن عشر

أطرو الناس لساناً !

وكان دين سعد عند صاحبنا قديماً يرجع تاريخه إلى العام الذى قدم فيه رسالته عن أبى العلاء إلى الجامعة ، وظفر بعد مناقشتها بدرجة الدكتوراه ، وكثر حديث الصحف والناس عن هذه الرسالة وصاحبها . وفى تلك الأيام قدم عضو من أعضاء الجمعية التشريعية اقتراحاً يطلب فيه أن تقطع الحكومة معونتها عن الجامعة لأنها خرجت ملحداً هو صاحب رسالة « ذكرى أبى العلاء » .

وكان سعد - رحمه الله - رئيس لجنة الاقتراحات فيما يظهر . فلما عرض عليه هذا الاقتراح دعا المقترح للقاءه ، وطلب إليه أن يعدل عن اقتراحه ، فلما أبى قال له سعد : إن أصررت على موقفك فإن اقتراحاً آخر سيقدم ، وسيطلب صاحبه إلى الحكومة أن تقطع معونتها عن الأزهر ، لأن صاحب هذه الرسالة عن أبى العلاء تعلم فى الأزهر قبل أن يتعلم فى الجامعة .

واضطر الرجل إلى أن يسترّد اقتراحه ، وسلمت للجامعة معونتها ، ولم يتعرض الفتى لشر . وكان الأستاذ أحمد لطفى السيد هو الذى أنبأ صاحبنا بهذه القصة ، وطلب إليه أن يسعى إلى سعد بشكر هذا الجميل . ولكن الفتى استحمياً إذ ذاك فلم يسع إلى سعد ، وأين هو من سعد ؟

فلما أتيج له لقاء رئيس الوفد فى باريس شكر له تلك العارقة ، وأثنى على جهده الخصب فى خدمة مصر وتفضيحته فى سبيل الوطن والشعب . فسمع منه سعد ولكنه

أجابه في فتور وضيق بأن جهده وجهد أصحابه وجهد الشعب كله لن يغني عن الوطن شيئاً . ألا ترى إلى كل هذه الأبواب التي غلقت من دوننا ؟ وما نحن أولاء قد وصلنا إلى باريس فبقطعت علينا الطريق إلى مؤتمر الصلح ، وألقيت الحجب الكثاف بيننا وبين ممثلي الدول المشتركة فيه ؟

قال الفتى : ولكن هذه الجهود توظف الشعب ، وتنبه لحقه ، وتدفعه إلى المطالبة به والجهاد في سبيله .

قال سعد محولاً الحديث عن مجراه : ماذا تدرس في باريس ؟

قال الفتى : أدرس التاريخ .

قال سعد : أو مؤمن أنت بصدق التاريخ ؟

قال الفتى : نعم إذا أحسن البحث عنه والاستقصاء له وتحليصه من الشائبات .

قال سعد : أما أنا فيكفي أن أرى هذا التضليل وهذه الأكاذيب التي

تنشرها الصحف في أقطار الأرض ويقبلها الناس في غير تثبت ولا تمحيص لأقطع

بألاً سبيل إلى تصفية التاريخ من الشائبات ، ولأقطع بعد ذلك بألاً سبيل إلى

استخلاص التاريخ الصحيح من هذه الشائبات . وانظر إلى ما ينشر عنا في مصر

وفي باريس وحدثني كيف تستطيع أن تستخلص منه التاريخ الصحيح !

وهم الفتى أن يتكلم ، ولكن سعداً مضى في حديثه قائلاً : لقد أقبلنا إلى

باريس والأمل يملأ نفوسنا فلم نقم فيها أياماً حتى استأثر بنا اليأس .

قال الفتى : وكيف نأيس وقد أيقظتم الشعب فاستيقظ ، ودعتموه فاستجاب ؟

قال سعد : وماذا يستطيع الشعب أن يصنع وهو أعزل لا يستطيع الدفاع

عن نفسه ، فضلاً عن أن يثور بأصحاب القوة واليأس ؟

قال الفتى : هو الآن أعزل . ولكنه سيجد السلاح غداً .

قال سعد : وأين يجده ؟

قال الفتى : إن الذين يهربون لنا الحشيش يستطيعون أن يهربوا لنا الأسلحة .
فأغرق سعد في الضحك ، وقال وهو ينهض : ألا تعلم أن الذين يراقبون تهريب
الحشيش سيراقيون تهريب الأسلحة ؟

وانصرف الفتى عن سعد فلم يره إلا بعد عام ، بل بعد أكثر من عام . ولم
يلقه سعد في تلك الزيارة الثانية بباريس لقاء الهاش له المرحب به ، وإنما لقيه
في شيء من الفتور . قال له وجمع منه ، ولكنه لم يقل شيئاً ذا بال ، ولم يسمع منه
شيئاً ذا بال ، وإنما كان لقاء قصيراً قوامه المجاملة ليس غير .

وقد عرف الفتى مصدر هذا الفتور ، فلم يضق به ، ولم يتهج له ، وإنما هز
رأسه ورفع كتفيه . . وكان مصدر هذا الفتور أن جماعة من تلاميذ الأستاذ الإمام
الشيخ محمد عبده أحيوا ذكرى وفاة أستاذهم في الجامعة ، وخطب صاحبنا في
ذلك الحفل فزعم أن مصر مدينة بما أتيج لها من البقطة لثلاثة رجال لا ينبغي أن ننساهم .
أولهم : الأستاذ الإمام الذى أحيى الحرية العقلية .

والثانى : مصطفى كامل الذى أذكى جذوة الحرية السياسية .

والثالث : قاسم أمين الذى أحيى الحرية الاجتماعية .

وقرأ سعد هذا الحديث . . فوجد على الفتى ، لأنه لم يذكره بين هؤلاء العظماء .
وتوالت خطوب السياسة بعد ذلك ، وكان صاحبنا أطول الكتاب لساناً
وأجراً قلماً في مهاجمة سعد ونقد سياسته قبل أن يلى الحكم وبعد أن وليه ، وبعد
أن اضطر إلى اعتزاله . وأصاب الفتى من هذه الخصومة مكروه أى مكروه ،
ولكنه لى سعداً بعد ذلك للمرة الثالثة والأخيرة في دارشوق ، رحمه الله .

كان شوقى يستقبل الشاعر الهندى العظيم تاجور . وقد دعا لهذا الاستقبال
من شاء الله أن يدعوهم من أصحاب الثقافة ورجال السياسة والحكم . وكان صاحبنا
أحد المدعوين . وإنه ليين جماعة من أصحابه وإذا سعد بقيا ، فيخف الناس

جميعاً لِقائِهِ وَبِهِمْ صَاحِبِنَا أَنْ يَتَأَخَّرَ وَلَكِنْ أَصْحَابُهُ يَدْفَعُونَهُ دَفْعاً ، وَكَانَ أَشَدَّهُمْ فِي ذَلِكَ الشَّيْخَ عَبْدَ الْعَزِيزِ الْبُشَيْرِي ، رَحِمَهُ اللَّهُ . وَجَدَ الْفَتَى نَفْسَهُ يَصَافِحُ سَعْدًا وَيَسْمَعُ سَعْدًا يَلْقَاهُ لِقَاءً حَسَنًا . ثُمَّ يَعُودُ النَّاسُ إِلَى أَمَاكِنِهِمْ وَيَقِيمُ سَعْدُ سَاعَةً أَوْ بَعْضَ سَاعَةٍ ثُمَّ يَنْصَرِفُ إِلَى مَجْلِسِ النَّوَابِ ، وَكَانَ لَهُ رِئَاسًا .

وَقَدْ كَادَ الْفَتَى يَلْقَى سَعْدًا مَرَّةً أُخْرَى لَوْ أَرَادَ الْفَتَى عَلَى أَنْ يَلْقَى سَعْدًا مَرَّةً أُخْرَى ، وَلَكِنَّهُ امْتَنَعَ وَأَلَحَّ فِي الْامْتِنَاعِ فَلَمْ يَتِمَّ هَذَا اللَّقَاءُ . كَانَ ذَلِكَ حِينَ أَرَادَ بَعْضُ النَّوَابِ الْوَفْدِيِّينَ أَنْ يَشِيرَ قِصَّةَ الشَّعْرِ الْجَاهِلِيِّ مَرَّةً أُخْرَى فِي الْمَجْلِسِ . فَرَدَّهُ سَعْدٌ عَنْ ذَلِكَ قَائِلًا : لَقَدْ انْتَهَى هَذَا الْمَوْضُوعُ فَلَا مَعْنَى لِلْعُودَةِ إِلَيْهِ .

قَرَأَ صَاحِبِنَا ذَلِكَ فِي الصَّحْفِ فَلَمْ يَكُنْ يَحْفَلُ بِهِ أَوْ يَلْقَى إِلَيْهِ بِالْأَلَى ، وَلَكِنْ الْأُسْتَاذُ أَحْمَدُ لَطْفِي السَّيِّدُ كَانَ مَدِيرَ الْجَامِعَةِ وَرَفِيقًا بِصَاحِبِنَا . فَالْحَجَّ عَلَيْهِ فِي أَنْ يَمْرُودَ سَعْدًا وَيَتْرَكَ بَطَاقَتَهُ ، وَعَسَى أَنْ يَلْقَاهُ فَيُشْكِرَ لَهُ كَلِمَتَهُ الطَّيِّبَةَ فِي مَجْلِسِ النَّوَابِ . وَلَكِنْ صَاحِبِنَا أَبَى وَأَصْرَرَ عَلَى الْإِبَاءِ ، وَقَالَ إِنْ سَعْدًا لَمْ يَزِدْ عَلَى أَنْ أَدَّى وَاجِبَهُ وَكَفَّ سَفِيهَاً أَحْمَقَ مِنْ نَوَابِهِ عَنْ سَفْهِهِ وَحِمَقِهِ .

وَاشْتَدَّ الْجِدَالُ فِي ذَلِكَ بَيْنَ الْأُسْتَاذِ وَتَلْمِيزِهِ وَلَكِنَّهُمَا لَمْ يَصِلَا إِلَى شَيْءٍ ، فَاحْتَكَمَا فِي الْمَسَاءِ إِلَى عَبْدِ الْعَزِيزِ فَهَمِي ، رَحِمَهُ اللَّهُ . وَلَمْ يَلْبِثْ هَذَا أَنْ قَضَى لَصَاحِبِنَا فِي غَيْرِ مَشَقَّةٍ وَلَا جِدَالٍ . وَمَا أَسْرَعَ مَا اسْتَحَالَ الْأَمْرُ كُلَّهُ إِلَى دُعَابَةِ بَيْنِ الْأُسْتَاذَيْنِ الْكَبِيرَيْنِ حَوْلَ مَا كَانَ يَمْلَأُ قَلْبَ عَبْدِ الْعَزِيزِ فَهَمِي وَعَقْلَهُ وَيَجْرِي عَلَى لِسَانِهِ مِنْ سَخَطٍ عَلَى سَعْدٍ ، وَإِنْكَارٍ لِكُلِّ مَا كَانَ يَصْدُرُ عَنْهُ مِنْ قَوْلٍ أَوْ فِعْلٍ ، لَا لَشَيْءٍ إِلَّا لِأَنَّهُ صَدَرَ عَنْ سَعْدٍ .

وَكَذَلِكَ كَانَتْ صِلَةُ صَاحِبِنَا بِسَعْدٍ يَسِيرَةً كُلَّ الْيَسْرِ فِي ظَاهِرِهَا ، عَصِيَّةً أَشَدَّ الْعَصْرِ فِي حَقَائِقِهَا وَدَخَائِلِهَا . جَرَّتْ عَلَى الْفَتَى شَرًّا كَثِيرًا ، وَأَتَاكَتْ لَهُ مَعَ ذَلِكَ خَيْرًا كَثِيرًا ، وَتَقَلَّبَتْ بِهِ بَيْنَ ضُرُوبٍ مِنَ الرِّضَا وَالسَّخَطِ ، وَفَنُونَ مِنَ الْأَمَلِ

والْيَاسَ ، وألوان من الشدة واللين . ولكن حديث هذا كله لم يأت إبانته بعد .
فلنعد إلى صاحبنا في باريس لئلا نراه مقللاً على حياته ، غارقاً في مشكلتها ،
منقلاً بأعبائها . بعد رسالته ، ويختلف إلى دروسه ، ويلقى أستاذه ، ويحتمل ضروباً
من الجهد في إجراء حياة أسرته على ما ينبغي أن تجري عليه من هذه السعة اليسيرة
التي تقم الأود ولا تعرض للْيَاس أو الشقاء .

وأقبل الصيف وقد قدّم صاحبنا رسالته إلى السوربون فرضيت عنها ، ولكنه
لم يرسلها إلى الجامعة ، ولم تسأله الجامعة عنها ، وإنما أقبل على امتحانه فنجح فيه
نجاحاً حسناً ، وظفر بالدبلوم ، وأتم بذلك أداء واجبه الذي كلفته الجامعة أن يؤديه .
وأن له أن يعود إلى مصر .

ولكن عودته إلى مصر أثارت بينه وبين المدير الإنجليزي للبعثة خلافاً طويلاً
ثقيلاً سخيفاً في وقت واحد . فقد كان نظام البعثة يقضى بأن يعود الطالب إلى
مصر على نفقة الجامعة إن أتم دراسته على الخطة المرسومة له . ولكن صاحبنا لن
يعود وحده ، بل ستصحبه زوجته ، فعلى نفقة من تعود هذه الزوج ؟

هنا حار المدير الإنجليزي للبعثة . فكتب إلى الجامعة مستفتياً ، وأذنت له
الجامعة في أن يعيد الزوجين جميعاً . ولكن الزوجين لن يستطيعا العودة إلا إذا
عادت معها أثقالهما ، وكانت الكتب أهم هذه الأثقال . فهي أكثر وأضخم من
أن توضع في الحقائب وكثير منها ملك للجامعة سيستقر في مكتبها آخر الأمر ،
والانتقال من باريس إلى القاهرة لا يتم بمجرد أن يتسلم المسافر بطلاقات السفر
في القطار والسفينة ، ولكنه يحتاج إلى فضل من النفقة ، فمن يؤدي هذا الفضل
من النفقة ؟ وكذلك احتاج مدير البعثة أن يكتب إلى الجامعة مستفتياً مرة أخرى ،
وليس شيء أضيع للوقت ولا أقلّ للجد ولا أدعى إلى السأم والضيق من الجدل
الطويل المتصل حول الموضوع السخيف الذي لا خطر له ولا طائل فيه .

وكم ضاق الفتى بما كان يكتب وما كان يتلقى من الرسائل حول هذا السخف الذى لا يغنى عنه شيئاً ، ولكنه وصل مع زوجه إلى مارسيليا عشية اليوم الذى حدد لإبحار السفينة .

ولا يكادان يصلان إلى هذه المدينة حتى يعلما ، ويا ثقل ما علما ! أن سفينتهما لن تبخر من الغد ، لأن إضراباً يحول بينها وبين الإبحار . واتصل الإضراب يوماً ويوماً ويوماً ، ثم اتصل بعد ذلك حتى بلغ خمسة وعشرين يوماً . وليس مع صاحبنا وزوجه وطفلهما ما ينفقان ، ولا أمل فى الاتصال بمدير البعثة ، ولا سبيل إلى الاتصال المباشر بالجامعة . فليقترض إذن من زميله ذاك الذى سيعود معه على السفينة نفسها ، والذى ينتظر مثله أن ينقضى الإضراب ، والذى لا يخلو جيبه من مال كثير ، لا لأنه كان غنياً ، بل لأنه كان مديراً مقتصداً أروع تدبير واقتصاد . وقد أخذ يقترض ، وبدأ الزوجان حياتهما المستقلة بالدين وأى دين .

وبيلغان الإسكندرية بعد لأيٍ وقد شقّ عليهما السفر ، وعنف بسفينتهما البحر ، ونفذ ما اقترضا من المال . ولكن الفتى كان قد كتب إلى صديقه الكريم عليه المؤثر له حسن باشا عبد الرازق محافظ الإسكندرية إذ ذاك بمقدمه . فلا تكاد السفينة ترسو حتى يقبل رسل المحافظ الصديق فيستخلصوا الأسرة من الضيق والشدة والحيرة إلى السعة والدعة والاطمئنان فى ذلك البيت الراق الجميل الذى كان المحافظ قد اتخذته فى رمل الإسكندرية .

وفى هذا البيت تقيم الأسرة مع الصديق الكريم ، رحمه الله ، أسبوعاً قبل أن تمضى إلى القاهرة ، ولكنها تؤثر الإقامة فى الإسكندرية وتشفق من شظف العيش الذى ينتظرها متى هبطت من القطار . ومن لها بالقطار وصاحبنا لا يملك أجره ولا يمرؤ على أن يتحدث إلى صديقه فى ذلك ، ولا يستطيع أن يكتب إلى أخيه فى القاهرة ، لأن زوجه لا تكتب العربية ولأن أخاه لا يقرأ الفرنسية . . .

وإن الزوجين لئى سمرهما مع المحافظ الصديق ذات ليلة ، وإذا هويتيهما بأن
قد آن لهما أن يسافرا ، وأن للفتى أن يقدم نفسه إلى الجامعة التى تعرف وصوله إلى
مصر وتنتظر مقدمه إليها .

وقد أعد كل شئ لسفرهما فى القطار الذى يبرح الإسكندرية ضحى الغد ،
فإذا أصبحا وفرغا من طعام الإفطار أقبل الصديق متلطفاً يقول لزوج الفتى :
أتعرفين النقد المصرى ؟
قالت متضحكة : لا .

- ها هو ذا فادرسه على مهل .

ثم ودعهما وانصرف مسرعاً فركب عربته إلى مكتبه .
وتدريس زوج الفتى هذا النقد ، فإذا الصديق قد جمع لها أوراقاً تصوّر النقد
المصرى إلى العشرة من الجنيهات . وقد فهم الزوجان عن صديقهما ، وأضافا فى
حسابهما ديناً لم يؤد قط إلى دين ما أسرع ما طالب صاحبه بأدائه ومعه فوائده على
قلة مالبت الدين فى ذمتها من الأسابيع . .

ويتجاوز النهار نصفه قليلاً ويبلغ القطار محطة القاهرة ، وينظر الزوجان
فإذا هما فى غمرة من الأهل والصديق ، ومنذ ذلك اليوم اتصلت أسباب حياتهما
الجديدة بأسباب مصر .

الفصل التاسع عشر

رفضت أن أمضى زمراً للعميان !

وبدأت حياة الزوجين في مصر متعرة ، يسم لها الأمل فتخف وتشرق ، وتعبس لها الضرورة فتثقل وتظلم . كانا ضيفاً على أخى الفتى ، ولكنهما كانا يعلمان أن هذه الضيافة لا ينبغي لها أن تطول ، وأن ليس لهما بد من أن يستقلا بحياتها ولا يكونا عيالاً على قريب أو غريب . واستقلال الأفراد كاستقلال الجماعات ، لا يهبط لهم من السماء ولا ينجم لهم من الأرض ، وإنما يكتسب اكتساباً ، وتبغى إليه الوسائل ، وتسلك إليه السبل التى تستقيم بأصحابها حيناً وتلتوى بهم حيناً آخر . وكانا يعرفان هذا كله ، ويعرفان السبل إلى استقلالهما ، ولكن صاحبنا لم يكن يملك الوسائل إلى سلوك هذه السبل . . . فهو لا يملك درهماً ولا ديناراً . وقد بخلت الجامعة عليه بما كانت تمنحه الناجحين من طلابها إذا عادوا إلى مصر من المكافأة ليهيئوا أنفسهم لاستقبال حياتهم الجامعية ، وأكبر الظن أنها لم تبخل عليه بهذه المكافأة عن رضا واختيار ، بل عن كره واضطرار . فقد رأى صاحبنا نفسه إذن مضطراً إلى أن يقرض من المال ما يتيح لزوجته وله أن يأويا إلى دار يعيشان فيها كما يريدان ، لا كما يراد لهما .

وهو عليه الأمر صديق كريم هو الأستاذ محمد رمضان ، رحمه الله ، صحبه إلى شركة كانت تسمى شركة التعاون المالى ، وضمنه عند هذه الشركة ، فأقرضته مئة من الجنيهات واقتطعت منها الفائدة وأعطته سائرها . وظن الفتى حين

وقع في يده هذا المال أنه أصبح على رأس ثروة ضخمة . فهو لم يملك مثل هذا المقدار من المال قبل اليوم . وقد أتى عليه حين من الدهر كان أقصى ما يمكن أن يقع في يده من المال لا يبلغ الجنيه غالباً ولا يتجاوزه بحال من الأحوال . ثم أتى عليه حين آخر من الدهر كان أقصى ما وصل إليه من المال لا يزيد على عشرين جنيهاً .

أتبع له هذا المقدار الذي كان يراه ضخماً حين نجح في الجامعة بمصر ، وحين نجح في السوربون بباريس . وهو اليوم يعدّ الجنيهات التي صارت إليه بالعشرات الكثيرة . على أنه لم يلبث أن رأى هذه العشرات تتناقص شيئاً فشيئاً . فقد أدّى دينه إلى زيمه ذلك الفتى الذي أعانه على انتظار آخر الإضراب في مارسيليا .

ومر مع زوجه بمصرف الكريدى ليونيه ، ولا أدري كيف كان ذلك . فقرأت عليه زوجه إعلاناً ينبي بأن المصرف يعرض منذ اليوم للبيع سهاماً في قرض فرنسي جديد . ومن مزايا هذه السهام أن القرعة تجري بينها من حين إلى حين ، وأن بعض هذه السهام يمكن أن يربح مليوناً من الفرنكات . وكانت قيمة هذا المليون في تلك الأيام عشرين ألفاً من الجنيهات . ولم يسمع الفتى هذا الإعلان حتى عزم على زوجه لتدخلن معه المصرف وليشتري لهما سهماً من هذه السهام ، وقد أبت عليه أشد الإباء ، ولكنه ألحّ وغلا في الإلحاح حتى استجابت له كارمة . وما هي إلا ساعة حتى رأى الفتى زوجه مسهمة في هذا القرض الفرنسي ، وجعلت الآمال تداعبه ، وجعل يقيس ما بقي له من مال إلى الألوف العشرين التي يمكن أن تساق إلى زوجه إن ربح سهمها بعد حين ، فيأخذ شيء يشبه الدوار .

ولكن الاقتراع الأول قد أجرى ، وربح فيه سهم مصري لم يكن سهم زوجه ، وإنما كان يملكه مظلوم باشا ، رحمه الله . . .

وما أكثر ماضحك الزوجان حين قرأ ذلك النبأ ، وحين صبح لهما ما كانا يسمعان من أن المال يدعو المال ، ومن أن العسر لا يدعو اليسر إلا قليلاً !

وقد مرت الشهور والأعوام وجعل الفرنك ينحل ويتضاءل ، وتنحل معه قيمة هذه الأسهم وتتضاءل ، حتى بلغت قيمة السهم الذى اشتراه الفتى لزوجته سبعة جنيهات ، ثم خمسة ، ثم انتهى إلى ثلاثة . ثم انقطعت أنبأوه وذاب كما يذوب الملح فى الماء . مهما يكن من شئ فقد نظر صاحبنا بعد أداء دينه وشراء سهمه إلى مابقى له من المال ، فإذا هو لا يبلغ العشرات الخمس . وإذا هو أقصر بداً وأضيق ذراعاً من أن يبلغ ما يريد . ويؤسس لزوجته ولنفسه داراً يرضيان عنها وعماً فيها . ولا بد لهما مع ذلك من دار ومن أثاث فى تلك الدار ، فاستأجر لهما الأستاذ محمد رمضان داراً فى حى السكاكينى ، وعمداً ومعهما الأستاذ محمد رمضان إلى سقطة المتاع ، فاشترى منه ما يقوم بأمر تلك الدار من الأثاث .

وما أشد ما شقيت نفس الفتى حين كان يرى زوجته تغالب دموعها وهى تختار بين ذلك السخف الذى لم يكن بد من الاكتفاء به حتى يجعل الله بعد عسر يسراً ، وبعد ضيق سعة ، وبعد حرج فرجاً .

وقد أوى الزوجان آخر الأمر إلى دارهما ، وخادعا نفسيهما عما فيها ، واطمأننا إلى ما لم يكن بد من الاطمئنان إليه .

وكان صاحبنا قد صرف لهذا الوقت الطويل عما كان ينبغي أن يفكر فيه منذ بلغ القاهرة . فستبدأ الدراسة فى الجامعة بعد أيام ، وليس له بد من أن يعد درسه الأول وينتهي لإلقائه فى ذلك الحفل الذى سيقدمه فيه إلى المستمعين عضو من أعضاء مجلس الإدارة . وما أسرع ما عاد إلى الكتب ، وعاد الصوت العذب إلى القراءة ، وعاد اشتراك الزوجين فى هذه الحياة الصافية النقية التى لا يكدرها المال ولا ينقصها الحرمان ، ولتى تسلى عن اليأس والبؤس والحرمان .

وجاء اليوم الموعود ، وأقبل صاحبنا إلى قاعة الدرس ، فتلقاه ثروت باشا ، رحمه الله ، وقدمه إلى المستمعين أحسن تقديم . وألقى صاحبنا درسه ، فرضى عنه

الناس ، ورضى عنه هو أيضاً .

وعاد الزوجان من ليلتهما تلك موفورين محبوبين ، قد ملأ الأمل قلوبهما ، وأزالا عنهما وَصْرَ ما احتملا من شقاء . وكان حظهما من السعادة والغبطة والرضا أعظم وأعمق بعد أن ألقى صاحبنا درسه الثانى .

وكان تاريخ اليونان هو الموضوع الذى اختاره صاحبنا للدروس فى هذا العام ، ولا سبيل إلى الأخذ فى درس التاريخ إلا إذا قُدِّمَ بين يديه وصف جغرافى للبلاد التى يدرس تاريخها ، فكان على صاحبنا أن يعرض الوصف الجغرافى لبلاد اليونان . وشهد الله لقد عرض هذا الوصف فلك قلوب الذين استمعوا له ، وملأ نفوسهم رضا عنه وإعجاباً به . وهو لم يصنع فى إعداد هذا الدرس إلا أن سمع لزوجته وأطاع . أرادت زوجته أن تفهمه الوصف الجغرافى لبلاد اليونان ، فأخذت قطعة من الورق وصاغت فى شكلها على نحو ما صاغت الطبيعة تلك البلاد . ثم أرادت أن تصوِّرها فى هذه البلاد من الجبل والسهل الذى يضيق حيناً ويتسع حيناً ومن البحار التى تأخذها من أكثر جهاتها ، فصوّرت ذلك بارزاً فى هذه القطعة من الورق ثم أخذت يد الفتى وجعلت تمرّها على هذه الورقة بعد أن افترضت معه أنها تبدأ من الجنوب وتمضى إلى الشمال ، وتنحرف مرة إلى الشرق ومرة إلى الغرب ، لتبين له مواقع البحر ، وتبين له الأماكن التى تضيق حيناً وتتسع حيناً ، والتى كانت تقوم فيها المدن القديمة . وما زالت به حتى فهم ذلك حق الفهم وأعاده عليها فاطمأنت إليه . وكان أول ما عجب له الموظفون فى الجامعة أن صاحبنا طلب قبل الدرس أن تعرض الصورة الجغرافية لبلاد اليونان فى قاعة الدروس . سمع الموظفون ذلك فأنكروه ، ولكنهم أضمرّوا إنكارهم وأجابوه إلى ما أراد . وأقبل الفتى على مجلسه فأنبأ المستمعين بأنه سيصف لهم بلاد اليونان من جنوبها إلى شمالها ، وليس عليهم إلا أن يتبعوه بأبصارهم على هذه اللوحة المصوّرة . ثم أخذ فى الحديث فلم يلجج ولم يتردد .

والطلاب يسمعون بآذانهم ويتبعون بأبصارهم حتى انقضت ساعة الدرس وقد أتم
الفتى ما أراد من الوصف الجغرافى لبلاد اليونان .

وكان ثروت باشا حاضراً هذا الدرس ، فلما تفرق الطلاب دعا الفتى إليه
فأشبعه ثناء وتكريماً وتشجيعاً .

ولم تمض أيام بعد تلك الليلة السعيدة حتى أقبل على دار الفتى ذات ضحى
شاب من موظفى القصر ، فأنبأه بأنه قد أقبل بدعوه للقاء رئيس الديوان .

قال الفتى : وماذا يريد منى رئيس الديوان السلطانى وأنا لم أعرفه ، وما أظنه
رأى قط ؟

قال الموظف : لا أدرى ، ولكنه أمرنى أن أدعوك للقاءه ، وأن أصبحك إلى
مكتبه .

وبعد ساعة كان الفتى عند رئيس الديوان شكرى باشا ، رحمه الله ، فرأى
رجلاً سمح النفس ، عذب الحديث ، خفيف الظل ، له مشاركة فى الأدب العربى ،
ولكن فى الأدب العربى الذى كان الناس يحبونه فى القرن الماضى . فهو كان يتحدث
عن الجناس والطباق وحسن الفكاهة وبراعة التورية ، ويروى لكل هذا أمثلة
من الشعر المتأخر لم يحفظ الفتى منها إلا بيتاً واحداً لأنه لم يكده يسمعه حتى غلبه
الضحك على ما كان ينبغى له من الأدب والوقار فى ذلك المجلس المهيّب . وضحك
شكرى باشا لضحك الفتى ، وقال فى نغمة لا تخلو من حزن : كان هذا البيت
يملؤنا رضى وإعجاباً وها أنتم أولاء شباب اليوم تضحكون منه وتنتدرون به وبأمثاله ،
والبيت هو :

أخذ الكرا منى وأحرمنى الكرى بينى وبينك باظلم الموقف
ويجب أن تقرأ الكرا مكسور الكاف فى أول البيت وهو الأجر ومفتوح الكاف
فى آخر الشطر الأول وهو النوم ، وأن تعرف أن « الموقف » هو ذلك المكان الذى كانت

تجتمع فيه الحُمُر لتحمل إلى حيب يريدون من المدينة .

والشاعر يريد أن يقول إن صاحب الحمام قد أخذ منه الأجر ، واشتطّ عليه فيه ، فذاد عنه النوم ، ثم هويشكوا من ظلم صاحب الحمام ، ويجعل موقف الحساب يوم القيامة بينه وبينه لينصفه الله منه .

وظاهر أن الجناس بين الكِرا والكُرى والتورية بالموقف لموقف الحُمُر هما مصدر الجمال الذي فنّ رئيس الديوان وأضحك الفتى ؛ ولا عليك من هذه الهمة التي زيدت في حرمي فقد دعت إليها ضرورة الوزن . والضرورات تبيح المحظورات ! وطال مجلس الفتى عند رئيس الديوان حتى إذا أقبل بعض الزائرين ، استأذن في أن ينصرف ، فأذن له الرئيس وهمس في أذنه : إن مولانا يحب أن يراك .

ولم يعرف صاحبنا كيف يقول ، ولكنه لم يُمنس من ذلك اليوم حتى عاد إليه موظّف القصر يحمل إليه كتاباً من كبير الأُمراء بأن المقابلة التي التمس التشرف بها قد حُدِّد لها تمام الساعة الحادية عشرة من صباح غد .

وسمع الفتى ذلك الكتاب فلم يملك نفسه أن قال : ولكني لم ألتمس شيئاً . قال موظّف القصر في صوت يجرى فيه الخوف : لا تقل هذا ، فراسم التشرف بمقابلة مولانا تقتضى دائماً أن تطلب المقابلة .

وسكت الموظّف قليلاً ثم قال : هل عندك سرّة الردنجات ؟

قال الفتى : نعم .

قال الموظّف : ما شاء الله ! كنت أريد أن أعيرك سترتي .

قال الفتى : لقد اتخذت هذه السرّة حين كنت أتهيأ للزواج .

ولم تم الساعة العاشرة من صباح غد حتى أقبل موظّف القصر ذاك رحمه الله فصحب الفتى إلى حيث أسلمه لأحد الأُمراء الذي أخذ يحدثه حتى حان موعد المقابلة ، فصحبه إلى مكتب السلطان . ونخف السلطان لفقائه كأحسن ما يكون

اللقاء . ثم أجلسه غير بعيد من المائدة التي كان يجلس إليها ، وتلطف له في الحديث ، وشمله بعطف كبير . وسأله : ماذا درس في فرنسا ؟ وماذا نال من الدرجات الجامعية ؟ فلما أنبأه الفتى بما درس وما نال من الدرجات أظهر الرضا ، وأثنى على الفتى ثناء حسناً لأنه درس اللغتين القديمتين ، ثم قال مترقفاً : تعلم أتى كنت رئيس الجامعة حين كنت أنت طالباً فيها . . .

فأطرق الفتى ولم يجب . قال السلطان : إنما ذكرتكَ بذلك لادْعُوكَ إلى أن تلجأ إلى كلِّما ضقت بشيء أو احتجت إلى عون .

واضطرب لسان الفتى بالشكر . ولكن السلطان دقَّ الجرس ووقف ، فوقف الفتى ، وأقبل الأمين فصاحبه إلى خارج الغرفة . وأسلمه إلى موظف القصر ليرده إلى داره .

وكان الفتى مضطرباً قبل أن يلقي السلطان لقصة كانت له معه حين كان رئيساً للجامعة ، وكان صاحبنا طالباً فيها .

انعقد في مصر مؤتمر للمكفوفين في سنة من تلك السنين ، واهتم له سكرتير الجامعة أحمد زكي « بك » . فالتقى فيه حديثاً وقدم إليه كتاباً عربياً قديماً ينبيئ فيها يظهر بأن العرب قد سبقوا إلى اختراع الكتابة البارزة .

وفي ذات مساء كان الفتى يسعى إلى غرفة الدرس ، وإذا رجل يأخذ بمجامع جبته وقفطانه ويقول له في لغة ملتوية : تعرف أن في مصر الآن مؤتمراً منعقدًا يبحث في شؤون العميان . . .

قال الفتى في عنف : وما أنا وذاك !

قال الرجل : تلقى فيه خطبة .

قال الفتى : لن ألقى شيئاً .

فخلاه الرجل ومضى وهو يقول : مش فاهم مش فاهم .

ولم يكد الفتى يبلغ غرفة الدرس حتى أحاط به ثلاثة أو أربعة من أعضاء مجلس إدارة الجامعة وجعلوا يسألونه : أتعرف من حدثك ؟
قال الفتى : لا أعرفه ، ولا يعني أن أعرفه .
قال قاتل منهم وهو يضع يده على كتف الفتى : إنه أفندينا الأمير ! إنه رئيس الجامعة ، فلا أقل من أن نجيبه في أدب حين يتحدث إليك .
وهز الفتى رأسه ولم يقل شيئاً ، فتفرقوا عنه وإن أحدهم ليقول : « دعوه فإنه شيخ ! » .

- ذكر صاحبنا هذه القصة في طريقه إلى القصر فاضطرب لها . فلما ذكره السلطان بأنه كان رئيساً للجامعة وقع في نفسه أن السلطان يريد أن يذكره بتلك القصة . فكاد الاضطراب يغلبه على أمره لولا أن السلطان رده إلى الهدوء بما مضى فيه من حديثه ذاك .

ولم يمض وقت طويل حتى تعقدت الأمور بين الجامعة وبين صاحبنا ، فهو قد تبين أن زوجه لا تستطيع أن تمنحه من وقتها كل ما يحتاج إليه للقراءة وإعداد الدروس . ولا تستطيع أن تصحبه دائماً إلى الجامعة ، ولا أن تخرج معه كلما أراد الخروج فليس لها بد من أن تعنى بصبيبتها ومن أن تقوم على دارها . وإذن فهو محتاج إلى رفيق يقرأ له أكثر النهار ، ويغدو معه ويروح كلما أراد غداً أو راحاً . ولا سبيل إلى أن يقطع أجر هذا الرفيق من مرتبه ، وكان ثلاثة وثلاثين جنبها يقطع منه في كل شهر ما يؤدي به بعض دينه لشركة التعاون . فطلب إلى الجامعة أن تزيد في مرتبه ما يعينه على أجر ذلك الرفيق . وأبت عليه الجامعة ما طلب كأنها ضاقت بكثرة مطالبه ، فاستقال في لهجة شديدة غضب لها مجلس الإدارة أشد الغضب .
وقال سكرتير الجامعة لصاحبنا ذات مساء : إن المجلس مزعم أن يقبل استقالتك وأن يطالبك بأن ترد على الجامعة ما أنفقت عليك في أثناء إقامتك في فرنسا .

وسمع صاحبنا ذلك فضايق به ، واكتأب له ، وراح إلى أهله محزوناً كاسف البال ؛ فلما قصَّ الأمر على زوجته هَوَّنت عليه الصعاب ، ويسرت عليه العسير . وأقنعت أنه كفيّره من الناس يخطئ ويصيب ، وبأنه أخطأ حين أسرع إلى الاستقالة ، والرجوع إلى الصواب خير من الإصرار على الخطأ ، وأسرف حين أساء إلى الجامعة التي أحسنت إليه ، والرجوع إلى القصد خير من التمادى في الإصراف . فليس عليه بأس أن يسترد استقالته ، وليس عليه بأس أن يعتذر من لهجته تلك القاسية . وأصبح صاحبنا فاستردَّ استقالته راغماً ، واعتذر إلى الجامعة راغماً أيضاً . واقتطع من مرتبه منذ ذلك اليوم أجر ذلك الرفيق الشيخ الذى كان يقرأ له ويغنى معه ويروح .

ولم يعلم الفتى كيف ارتفع أمر هذه الخصومة بينه وبين الجامعة إلى السلطان . ولكن موظف القصر يزوره ذات مساء ويقول له فى صوت متضاحك : لقد التمسَ التشرف بمقابلة عظمة السلطان ، وقد حدّد لهذه المقابلة منتصف الساعة الثانية عشرة من الغد . ويدفع إليه كتاباً من كبير الأمناء بهذا المعنى ، فإذا انصرف عنه قال : سأصحبك غداً إلى القصر .

وتلقى السلطان صاحبنا لقاء حسناً ، وتحدث إليه فأطال الحديث . ثم قال له فجأة : لقد بلغنى نبأ استقالتك من الجامعة ، وقد أحسنت بالعدل عن هذه الاستقالة ، ولا بدّ من صبر طويل واحتمال كثير من الجهد ، فبين هؤلاء الناس وبين حسن الذوق وقت ما زال طويلاً . ولكن اذكر دائماً ما قلته لك حين لقيتك فى المرة الأولى . ثم دق الجرس ووقف ، فوقف الفتى ، وأقبل الأمين فقادته إلى خارج الغرفة . وشعر صاحبنا بأن عليه منذ اليوم للسلطان ديناً يجب أن يؤدّى . ولم تمض شهور حتى كان قد أتم أول كتاب أصدره بعد عودته من أوروبا : « صحف مختارة

من الشعر التمثيلي اليوناني » . فأهداه إلى السلطان ، ورفعته إليه في مقابلة ثالثة التمسها هو وأجيب إليها . وظن أنه قد أدّى إلى السلطان حقّه وشكر له عطفه عليه وبرّه به ، ولكن السلطان كان يرى شيئاً آخر ، ويتنظر شكراً آخر غير إهداء كتاب مهما يكن موضوعه .

الفصل العشرون

إيمان بالثورة!

لم يكن صاحبنا قد أتم العقد الثالث من عمره حين عاد من أوروبا وأصبح أستاذاً في الجامعة ، ولكنه كان يعتقد أن تجاربه الكثيرة التي بلا حلوها ومرها في أثناء إقامته في فرنسا قد تجاوزت به هذه السن ، وتيفت به على الأربعين ، فهو قد أنفق في فرنسا أعوام الحرب العالمية كلها ، وهو لم يعيش تلك الأعوام لاهياً عما كان يجري حوله من الأحداث ، ولا غافلاً عما كان في هذه الأحداث من عبر وعظات . وهو لا يذكر أنه صُرف عن أحداث الحرب وأصدائها في الأمة الفرنسية وغيرها من الأمم المحاربة يوماً من الأيام . كان يقرأ الصحف الفرنسية معنياً بقراءتها ، وكان يطيل التفكير فيها يقرأ .

وهو لم يعد إلى مصر إلا بعد أن وضعت الحرب أوزارها ، وامتاز المنتصر من المهزم ، وظهرت آثار الانتصار عند الغالبين ، وآثار الهزيمة عند المغلوبين ، وثلت عروش كان الناس يقدرون لها الخلود ، وذلت شعوب كان الناس يقدرون لها سلطاناً لا يزول .

وفي أثناء تلك الحرب كانت ثورة لم يعرف التاريخ لها نظيراً إلا الثورة الأمريكية والفرنسية في القرن الثامن عشر . وقد حاولت هذه الثورة أن تحقق نظاماً كان الناس يقرعونه في الكعب ، ويعتقدون أنه من هذه المثل البعيدة التي لا سبيل إلى تحقيقها . كل ذلك عرفه صاحبنا وتتبع أنباءه وآثاره في عناية لم تكن أقل من عنايته

بالدرس والتحصيل ، وهو في هذا الدرس وهذا التحصيل قد قرأ وسمع أساتذته يعرضون ويفسرون تاريخ الأمم القديمة والحديثة ، وما اختلف عليها من الأحداث التي تطورت لها نظم الحكم على اختلاف العصور . وكان شديد التأثير بدروس الأستاذ دوركيم في علم الاجتماع . وكان الأستاذ دوركيم قد أنفق عاماً كاملاً يدرس لتلاميذه مذهب الفيلسوف الفرنسي سان سيمون الذي يقوم على أن أمور الحكم الصالح المنتج الذي يحقق العدل ، ويكفل رفق الشعب ، ويتيح للإنسانية أن تتقدم إلى أمام ، يجب أن تصير إلى العلماء لأنهم هم الذين يستطيعون أن يلائموا بين نتائج العلم على اختلافها وبين حاجات الناس وطاقتهم واستعدادهم للتطور والمضي في سبيل الرقي .

فليس غريباً أن يعود صاحبنا إلى وطنه مؤمناً بالثورة التي نشبت فيه ، ومؤمناً في الوقت نفسه بأن عبثاً خطيراً من أعباء هذه الثورة سيقع على العلماء والمثقفين من أبناء هذا الوطن ، فهم قد عرفوا تجارب الأمم ، وعرفوا حقائق العلم ، واستطاعوا أن يميزوا بين ما يمكن من الأمور وما لا يمكن ، وهم القادرون على أن يقودوا الشعب إلى الخير ، ويسلكوا به قصد السبيل ، ويعصموه من التورط فيما تورطت فيه شعوب كثيرة فلم تجن منه إلا شراً .

وكان صاحبنا يقدر أن الساسة الذين يقودون الثورة سيختلفون في يوم قريب أو بعيد ، ويعتقد أن العلماء والمفكرين سيكونون هم الذين يحققون التوازن بين الساسة حين يختلفون ، وسيقضون بينهم فيما يضطرون إليه من الاختلاف .

كان مؤمناً بهذا ، وكان مستيقناً أن العلماء والمفكرين لن ينحازوا إلى الأحزاب ، ولن يكونوا كثيرهم من عامة الناس ، الذين يقادون ولا يقودون . ولم يكن يقدر أن سيشارك في السياسة من قرب أو بعد ، ولكنه لم يكن يتردد في أنه لن يحجم عن أداء الواجب وقول كلمة الحق إن اضطر إلى ذلك غير حاسب للظروف ولا للعواقب حساباً .

على أنه لم ينفق في مصر شهوراً حتى تبين أنه كان واهماً في كل ما قدر ،
وأن العلماء والمفكرين ناس من الناس يتأثرون بالجماعات التي يعيشون فيها ،
فيخطئون مثلها ويصيبون . بل هم قد يرون الخطر ويعمدون إليه متابعين للجماعات
التي يذهبون مذهبها أو يرون رأيها . وهناك تبين أن ذلك الشاعر الجاهلي إنما صور
حقيقة خالدة من حقائق الجماعات حين قال :

أَمَرْتَهُمْ أَمْرِي بِمُتَعَرِّجِ اللَّوْىِ فلم يستبينوا الرُّشدَ إِلَّا ضُحَى الغدِ
فلَمَّا عَصَوْني كُنتَ مِنْهُمْ وَقَدْ أَرَى غَوَايَتَهُمْ أَوْ أَنَّنِي غَيْرُ مَهْتَدِي
وهل أَنَا إِلَّا مِنْ غَزِيَّةٍ إِنْ غَوَتْ غَوَيْتُ وَإِنْ تَرُشِدَ غَزِيَّةُ أَرُشِدِ
وكان أول ما لاحظ بعد أن أقام وقتاً قصيراً في مصر ، أن الأمر كان مختلفاً
بين الذين كانوا يرون أنفسهم علماء ومفكرين وبين عامة الناس والشباب منهم
خاصة .

فأما أولئك فكانوا يؤمنون بالثورة ، ولكنهم كانوا يؤمنون بأنفسهم أيضاً ، وهم
من أجل ذلك لا ينظرون إلى الأحداث ولا يشاركون فيها خالصين لها في غير تردد ،
وإنما كانوا يقدرون لأرجلهم مواضعها قبل الخطو ، ولا يتحرجون من نقد الساسة
والقادة والتندر بهم حين يقولون وحين يفعلون . وكان هذا الموقف يعرضهم للانقسام
على أنفسهم ومشاركة الساسة في الاختلاف حين يتورطون فيه .

وأما عامة الناس - والشباب منهم خاصة - فكانوا مؤمنين بالثورة ، قد أخلصوا
لها نفوسهم وقلوبهم وأيديهم أيضاً . لا يفكرون في عاقبة ولا يخافون هولاً مهما يكن .
وهم كانوا يعرضون صدورهم لرصاص الإنجليز ، ويغامرون بحياتهم مغامرة رائعة
على حين كان بعض الساسة القائمين بالحكم في تلك الأيام لا يحفلون بهم ولا بما
يلقون ، وإنما يصانعون الإنجليز حيناً ، ويصانعون القصر حيناً آخر ، ويسخرون من
أولئك الذين كانوا ينتظرون في باريس أن تفتح لهم أبواب وزارات الخارجية أو يحاولون

فى لندن أن يصلوا مع الإنجليز إلى كلمة سواء .

ولم يكذب الإنجليز يعلنون زهدهم فى الحماية وميلهم إلى إلغائها وإقامة نظام خير منها ، ولم تكذب وزارة الثقة - كما كانت تسمى فى تلك الأيام - تنهض بأعباء الحكم ، ولم يكذب سعد - رحمه الله - يعود إلى مصر ، حتى نجم الخلاف بين الوزارة وبين الوفد حول المفاوضات : من الذى يجريها ؟ !

أيجريها الوزارة لأنها تمثل السلطان الشرعى النظامى ؟

أم يجريها الوفد لأنه يمثل الشعب الثائر ؟

وكان الغريب من أمر هذا الخلاف أنه كان يتصل بالمظاهر والصور لا بالوقائع وحقائق الأمر . كان أعضاء الوزارة وأعضاء الوفد يؤمنون جميعاً بحق مصر فى الاستقلال ، وبأن هذا الاستقلال يجب أن يستخلص من الإنجليز بالمفاوضة الحرة إثارةً للسلم ورغبة فى العافية وبخلاً بالدماء على أن تراق وبالنفوس على أن ترهق قبل أن تستنفد وسائل السلم . ولكنهم على هذا الاتفاق والإجماع كانوا يختلفون فى مظاهر هذه المفاوضة ، لأن من يجريها سيتاح له تحقيق الاستقلال إن قدر له النجاح .

وكذلك انقسم المصريون واثرت بينهم فتنة منكرة جعلت بأسهم بينهم شديداً . ونظر صاحبنا فإذا العلماء والمفكرون كغيرهم من الناس قد انقسموا إلى فريقين : فريق منهم مال إلى الوفد وقال مع القائلين : « لا رئيس إلا سعد » ، وفريق آخر مال إلى الوزارة وقال مع القائلين : « إنما المفاوضات لمن ولى الحكم » . ثم نظر صاحبنا فإذا هو كغيره من عامة الناس ، وإذا هو مع الفريق الذى مال إلى الوزارة ورئيسها على باشا ، رحمه الله .

وما أسرع ما اضطربت الفتنة حتى مس لها كل نفس وكل عقل وكل ضمير وإذا الوفد بتنى الإخفاق للوزارة فى مفاوضاتها ، ويدبر لهذا الإخفاق ، وإذا

أتباع الوفد يجهرون في غير تحفظ بدعائهم ذاك البغيض : « الحماية على يد سعد خير من الاستقلال على يد علي » !

وإذا صاحبنا ينفق أقصى ما كان يملك من العنف في مهاجمة هؤلاء الوفدين الذين اتخلوا من بغضهم لعللى وأصحابه ، ومن حرصهم على رياسة المفاوضات ديناً ، وإذا هويكتب ذات يوم في صحيفة « المقطم » ساخراً من السعديين « يقول الوفديون لا رئيس إلا سعد كما يقول المسلمون لا إله إلا الله » .

وقد بلغ الشر أقصاه بين الفريقين حتى انتهى إلى إخفاق المفاوضات ، ولم يتزل الإنجليز لعللى عن الاستقلال وكثرة المصريين لا تؤيده بل لا تحبه بل تبغضه وتبغض أصحابه أشد البغض وأنكره .

ويعود علي مخففاً ، فيفرح بإخفاقه الوفد وأتباعه ، ويزعم أصحاب علي - أن صاحبهم قد كان أياً كريماً قد ثبت للإنجليز فلم يتزل لهم عن حق الوطن ولم يقبل منهم الدنية وعاد أشم مرفوع الرأس . ويرى صاحبنا نفسه ذات يوم في محطة القاهرة مع المستقبلين لعللى وهو يصبح مع الصائحين : « ليحى علي باشا » .

وقد حمل العدليون صاحبهم على الأكتاف حتى وضعوه في سيارته . ولا يكاد المستقبلون للمخفق العظيم يخرجون من المحطة حتى تهال عليهم اللعنات ويصبّ عليهم الاستهزاء صباً ، ثم يقدفون بالحجارة والعصى ، ويصاب صاحبنا ببعض الأذى ، ولولا أن رفيقه كان ماهراً لبقاً لتعرض لشرك كثير . ولكن رفيقه انعطف به إلى حارة من الحارات ثم نفذ به إلى حيث أمن الحصى والحجارة والشتم . وأعادته إلى داره موفوراً مكدوداً مع ذلك .

وينى سعد بعد إخفاق علي بقليل ، وينكر علي هذا الإخفاق ، ويلح في قبول استقالته ، ويرى أصحاب علي أن نفي سعد إهانة للوطن كله ، وتوشك

الكلمة أن تجتمع ، ويوشك المصريون أن يصبحوا بدًا واحدة على خصمهم من الإنجليز . ولكن العصا لا تلبث أن تنشق ، والخلاف لا يلبث أن يعود كأعنف ما كان ، لم يغير أحد الفريقين من رأيه ولا من خطته شيئاً .

يقول العدليون إن حب الوفد للرياسة قد أضاع المفاوضات !
ويقول السعديون إن ازدياد عدل للشعب ومثله قد أضاع الاستقلال ، ويوشك الاستقلال أن ينسى وتنصرف عنه النفوس بفضل هذه الفتنة المظلمة التي كان المصري فيها يخرج يده فلا يكاد يراها .

على أن تصريح الثامن والعشرين من شهر فبراير سنة اثنتين وعشرين وتسعمائة وألف يرد إلى العدلين شيئاً من ثقة وكثيراً من أمل . فقد ظفر ثروت باشا رحمه الله ببعض الحق . وشيء خير من لا شيء !

وقد أتيح لمصر أن تدبر أمورها بنفسها ، وأتيح للشعب أن يكون له دستور ، وأن يحيا حياة ديمقراطية كريمة . وأصبح السلطان ملكاً ، وأصبح لمصر أن ترسل ممثليها السياسيين إلى البلاد الأجنبية بعد أن عادت إليها وزارة الخارجية التي ألغاهها الإنجليز حين أعلنوا الحماية .

وكل هذا يتيح لمصر مظاهر الاستقلال وشيئاً من حقائقه مهما يكن قليلاً فإن له مابعد . ولكن السعديين كانوا ينكرون هذا التصريح ويرونه شرّاً ونكراً ويرون قبوله جرعة وإثمًا .

والخلاف يعضى في طريقه لا تهدأ ثورته ولا تزداد ناره إلا اضطراباً ، وصاحبنا ماض مع أصحابه في إذكاء هذه النار لا يعنيه أن يرضى عنه الراضون أو يسخط عليه الساخطون ، وإنما هو مقتنع بأن شيئاً خير من لا شيء وبأن القليل صائر إلى الكثير ، وبأن هذه المظاهر ستصبح في يوم من الأيام حقائق إن عرف المصريون كيف يحزمون أمورهم وكيف يجمعون كلمتهم وكيف يحسنون انتهاز الفرص .

وقد أخذ ثروت باشا رحمه الله يهيئ لوضع الدستور فألف لجنة الثلاثين ، وأخذت هذه اللجنة في عملها . ولكن شراً آخر يظهر في أفق مصر . . .

فهذه اللجنة قد أخذت عملها على أنه جد ... وجعلت تضع دستوراً ديمقراطياً يقول الشعب من الحقوق ما لا يريد القصر أن ينزل عنه . وإذا سلطان الأمس وملك اليوم يملك بالوزارة واللجنة جميعاً . وإذا الخلاف يظهر بين القصر وبين ثروت باشا ، وتكون ديمقراطية الدستور هي أصل هذا الخلاف . وصاحبنا ماض في تأييد الدستور الديمقراطي غير ملق بالآلا إلى القصر ولا إلى صاحب القصر الذي أحسن لقاءه ومنحه كثيراً من العطف والبر والتشجيع .

وفي ذات يوم يني ثروت باشا صاحبنا بأن القصر ساخط عليه ، وبأنه يحاول أن يصلح الأمر .

قال صاحبنا متضحكاً : فأصلح الأمر بين الوزارة وبين القصر إن وجدت إلى ذلك سبيلاً . فهذا أجدر بعنايتك من إصلاح الأمر بين القصر وبينى ! ولم يستطع ثروت باشا أن يصلح الأمر بين القصر والوزارة ، ولا بين القصر وصاحبنا ، وإنما استقال .

ونظر صاحبنا فإذا هو بين عدوين لا يدري أيهما أنكى له من صاحبه .

يراه السعديون مارقاً مالأ المارقين .

ويراه القصر كافراً بالنعمة جاحداً للجميل .

ويرى هو أنه قد أرضى ضميره وأدى واجبه وليكن بعد ذلك ما يكون .

وكذلك غرق صاحبنا في السياسة إلى أذنيه ، وكان جديراً أن يفرغ للعلم والتعليم وألا يفكر إلا في طلابه وكتبه ، ولكن بعض الظروف تحيط بالشعوب فتجعل الحيدة بالقياس إلى بعض أبنائها إنما لا يفتقر ، ولا تمحي آثاره .

وكان صاحبنا يرى الحيدة في ذلك الوقت جناً ونفاقاً . والمهم أنه غرق في

السياسة أو احترق بنارها ، ولم يكن له بد من أن يحتمل تبعات هذا الفرق أو هذا الحريق . وهل كانت حياته كلها منذ تلك الأيام إلا نتيجة طبيعية لإقدامه على السياسة وغرقه فيها واصطلاته نارها ؟

كل ما لقيه بعد ذلك في حياته من خير أو شر ، ومن عرف أو نكر ، ومن رضا أو سخط لم يكن إلا أثراً من آثار تلك السياسة التي أقدم عليها غير حاسب لأعقابها ونتائجها حساباً . وعلى كثرة ما لقي من أهوال السياسة وما احتمل من ألقاها وما تعرض لسخط المتطرفين حيناً والمعتدلين حيناً آخر ، لم ينكر من سيرته شيئاً ولم يندم على فعل فعله أو قول قاله .

وكثيراً ما كان الناس من صديقه يلومونه على أنه عرض نفسه لسخط هذه الفئة أو تلك . فلم يكن يزيد على أن يهر رأسه ويرفع كتفيه ويحجب مؤلاء الصديق بما كان يديره بينه وبين نفسه دائماً : لو استؤنف الأمر من حيث ابتدأ لاستأنف سيرته التي سارها ، لم يغير منها شيئاً ولم ينكر منها قليلاً أو كثيراً . ذلك لأنه لم يستجب فيما قال أو فعل إلا لما كان يدعو إليه ضميره من الإقدام في غير تهيّب ولا وجل ، ولا سباً حين يبلغ الشر أقصاه وتنتهى الفتنة إلى غايتها . . .

ولقد رأى نفسه ذات يوم وليس بينه وبين المحنة إلا خطوة إلى أمام ، وليس بينه وبين العافية إلا خطوة إلى وراء ، وأن أصدقاءه المحبين له العاطفين عليه الذين لم يكونوا يملكون له في تلك الأيام إلا المشورة والنصح ، ليلحون عليه في أن يؤثر العافية ، ولو وقتاً قصيراً ، فلا يسمع لمشورتهم ولا يحفل بالحاحهم ، وإنما يخطو خطوته تلك إلى أمام . فلبقى بنفسه بين ذراعي وجبة الأسد كما يقول الشاعر القديم . وما أمض ما جرد وجود أهله معه من ألم ! وما أمر ما ذاق وذاق أهله معه من شقاء ! . . . ولكنه كان يستحب تلك الشدة الشديدة والقسوة القاسية على العافية واللين .

كان يعرف نفسه حين يشقى في سبيل ما يرى أنه الحق ، وينكرها أشد الانكار

بل يبغضها أشد البغض إذا نعم بالخفض واللين لأنه صانع أو داجي أو جهر بغير
 ما يسر أو آثر رضا السلطان على رضا الضمير . وكان شعاره دائماً الشعار الذي كان
 يبادى به من يخاصمه كما كان يبادى به من يغريه قول أبي نواس :
 وما أنا بالمشغوفِ ضربةً لازِبٍ ولا كلُّ سلطانٍ على أمير !

فهرس

صفحة									
٣	.	.	.	.	.	على باب الأزهر .	:	الفصل الأول	
٩	.	.	.	.	.	كيف سقطت في امتحان العالمية	:	الفصل الثاني	
١٥	.	.	.	.	.	أثر اختفاء المرأة .	:	الفصل الثالث	
٢٣	.	.	.	.	.	عندما خفق القلب لأول مرة .	:	الفصل الرابع	
٣٠	.	.	.	.	.	أستاذى يدعو على بالشقاء .	:	الفصل الخامس	
٣٧	.	.	.	.	.	أستاذنى .	:	الفصل السادس	
٤٤	.	.	.	.	.	كيف تعلمت الفرنسية .	:	الفصل السابع	
٥٤	.	.	.	.	.	ثلاث تجارب .	:	الفصل الثامن	
٦٣	.	.	.	.	.	الفلسفة المفسدة .	:	الفصل التاسع	
٧١	.	.	.	.	.	أستاذ جامعى بخمسة جنهات	:	الفصل العاشر	
٧٩	.	.	.	.	.	الفتى فى فرنسا .	:	الفصل الحادى عشر	
٨٧	.	.	.	.	.	الصوت العذب .	:	الفصل الثانى عشر	
٩٥	.	.	.	.	.	فى الحى اللاتينى	:	الفصل الثالث عشر	
١٠٣	.	.	.	.	.	قصة حب	:	الفصل الرابع عشر	
١١٣	.	.	.	.	.	المرأة التى أبصرت بعينها	:	الفصل الخامس عشر	
١٢١	.	.	.	.	.	طلبت تأجيل الامتحان للزواج	:	الفصل السادس عشر	
١٣١	.	.	.	.	.	يوم سقطت القنبلة على بيتى	:	الفصل السابع عشر	
١٤٠	.	.	.	.	.	أطول الناس لساناً	:	الفصل الثامن عشر	
١٤٧	.	.	.	.	.	رفضت أن أحضر مؤتمراً للعميان	:	الفصل التاسع عشر	
١٥٧	.	.	.	.	.	إيمان بالثورة	:	الفصل العشرون	

١٩٩٤ / ١٧٨٨	رقم الإيداع
ISBN 977-02-4346-9	الترقيم الدولي

١ / ٩٣ / ١٢٣

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)